اقتران المال بالبنين

في

القـــران الكـــــريم

(دراســـة بلاغيـــة)

إعداد الدكتور

حسن محمد الشريف

مدرس البلاغة والنقد

كلية الدراسات الإسلامية والعربية

بنين بالديدامون شرقية

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إنَّ الحَمْدَ لله، نَحْمَدُه، ونستعينُه، ونستغفرُهُ، ونعوذُ بـه مِن شُرُور أنفُسِنَا، وَمِنْ سيئاتِ أعْمَالِنا، مَنْ يَهْدِه الله فلا مُضِلَّ لَهُ، ومن يُضْلِلْ، فلا هَادِيَ لَهُ.

وأشْـهَدُ أنْ لا إلَـهَ إلا اللهُ وَحْـدَهُ لا شَـريكَ لَـهُ، وأشـهدُ أنَّ مُحَمَّـدًا عبْـدُه ورَسُولُه.

وبعـــد ،،

فلم تعرف البشرية عبر تاريخها الطويل كتابا عنى به الباحثون واهتم به الدارسون كالقرآن الكريم ، ذلك أنه كتابُ الإسلام الأوحد الذي كان وما زال وسيظل إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، قبلة للباحثين وملاذا للدارسين ، جمع بين الإعجاز والبيان فجاء نظمه بناء محكماً متلاحم الأجزاء في أتم تأليف وأروع تركيب ،فاعجز البلغاء والفصحاء ، وبلغ شأوا لم يبلغه كتاب قط ، وإيمانا منا بالإعجاز البلاغي للقرآن الكريم وقدرته على بعث هذه الأمة من رقدتها وإحياء مجدها التليد ، وإمعانا في الاستزادة من أسرار النظم القرآني وكشف المزيد من أسراره البيانية كان موضوع هذا البحث :

(اقتران المال بالبنين في القران الكريم دراسة بلاغية)

وقد قمت بتقسيم الآيات إلى مقامين مقام التهديد والوعيد ، ومقام الإرشاد والتوجيه ، سبقهما مقدمة وتمهيدٌ وأعقبهما خاتمة بها أهم النتائج ، وأخيرا المصادر والمراجع .

ففي المقدمة بيان بأهمية الموضوع وسبب اختياره ومنهجي في تناوله والخطة العلمية التي سار عليها .

وفى التمهيد عرجت فيه لتعريف كل من المال والبنين وبينت موقف الإسلام منهما وما يجب على المسلم فعله من شكر تلك النعم ، وكان منهجي في هذه الدراسة استقصاء المواطن التي اقترن فيها المال بالبنين في القرآن الكريم ، ودراستها دراسة بلاغية للوقوف على ألوان بلاغتها ، ومظاهر جمالها ، وعناصر قوتها وتأثيرها مستعينا في ذلك بما أقره علماء البلاغة وما أثبته المفسرون ، متحريا الدقة والأمانة والإيجاز المفيد .

وبعـــد

فالشكر موصول لكل من قدم لي يد المساعدة في إنجاز هذا البحث المتواضع راجياً من الله أن يحقق الهدفَ المنشودَ منه ، وحسبي أنني حاولتُ ، واجتهدتُ ، والكمال لله وحده ،،

واللهَ اسأل أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم ، إنه ولي ذلك والقادر عليه ،،

رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ، و الْحَمْدُ للهِ أَوَّلاً وآخِراً

د حسن الشريف

التمهيـــــد

خلق الله سبحانه وتعالى الإنسان وكرمه، وهيأ له الأسباب التي تساعده على حمل الأمانة التي كلف بها، ومن بين هذه الأسباب المال ، فبالمال تحقيق سعادة الإنسان، وبه يتقدم العلم، ويتحقق النصر على الأعداء والإنسان بطبعه محب للمال حريص عليه ، والمال كما جاء في القاموس المحيط : " ما ملكته من كل شيء " [1] وفي لسان العرب (المالُ معروف ما مَلَكْتَه من جميع الأشياء قال ابن الأثير المال في الأصل ما يُملك من الذهب والفضة ثم أُطلِق على كل ما يُقْتَنَى ويملك من الأعيان ، وأكثر ما يُطلق المال عند العرب على الإبل لأنها كانت أكثر أموالهم)[2] فالذي يؤخذ من المعاجم والقواميس اللغوية،أن المال في اللغة العربية يطلق على كل ما تملكه الإنسان وحازه بالفعل ، وهو نعمة من نعم الله- تعالى – وهو من أعظم أسباب السعادة لا يستغنى عنه في حال من الأحوال فبه تقضى الحاجات ، تنال الرغبات ، وترفع الدرجات ، وهو والبنون كما أخبر الحق زينة (الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)[3] .

وموقف الإسلام من المال واضح لا غموض فيه ولا لبس : فالمال ليس شراً يجب على المؤمن محاربته أو الخلاص منه ، كما أنه ليس هدفاً في حد ذاته يستحق أن يعمل الإنسان من أجله جل حياته،وإنما هو وسيلة تعين الإنسان على الحياة، ونعمة من الله سبحانه وتعالى تستحق الشكر ، والإنسان ليس مالكاً حقيقاً للمال و إنما هو مستخلف فيه بنص القرآن الكريم: (آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ

---

[1] القاموس المحيط محمد بن يعقوب الفيروزابادي مؤسسة الرسالة بيروت المالُ .
[2] لسان العرب محمد بن مكرم بن منظور دار صادر بيروت الطبعة الأولى مول
[3] الكهف: ٤٦

فِيهِ)[٤]. فالإنسان المؤمن يتصرف في المال وفق ما شرعه الله سبحانه وتعالى [٥].

أما البنون : فهم الأولاد مطلقا، فلذة الأكباد، وقرة الأعين ، لكنهم مع الأموال فتنة تتطلب الحذر، كما قال تعالى:(إِنَّما أَمْوالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ)[٦]والفتنة بالأولاد : الابتلاء بجمع المال لأجلهم.[٧] ويجب على الإنسان الذي رزق هاتين النعمتين أن يشكر الله تعالى وأن يتخذ منهما زاداً للآخرة .

هذا وقد ذكر كل من المال والبنون في القرآن كثيرا فتكررت كلمة(مال) في القرآن الكريم ستاً وثمانين مرة في صيغة المفرد والجمع، وقد جاءت نكرة، ومعرفة بال التعريف، ومضافة إلى ضمير المفرد الغائب "أمواله"، وضمير الجمع المخاطب "أموالكم"، وضمير الجمع الغائب "أموالهم"، وضمير الجمع المتكلم "أموالنا". كما أضيفت الكلمة إلى لفظ الجلالة في آية واحدة [٨] .

وقد اقترن المال بالبنين أو الأولاد في أكثر من ثلاثين آية قرآنية قمت بحصرها ودراستها دراسة بلاغية أسأل الله أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم آمين .

---

[٤] سورة الحديد: ٧

[٥] المال في القرآن محمود محمد غريب الطبعة الأولى ١٩٧٦م : ٥ وما بعدها

[٦] التغابن ٦٤/ ١٥

[٧] التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج ، وهبة بن مصطفى الزحيلي دار الفكر المعاصر، دمشق ، الثانية : ٣/ ١٦٦ .

[٨] (وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ) من سورة النور: ٣٣

المقـــــام الأول

مقام التهديد والوعيد

المتتبع للقرآن الكريم يجد أن حديثه عن المال مقروناً بالبنين قد ورد للتهديد والوعيد في مواطن عدة .

منها **الموطن الأول** : قوله تعالى :

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ مِنَ اللهِّ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللهُّ بِذُنُوبِهِمْ وَاللهُّ شَدِيدُ الْعِقَابِ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ)[٩] .

هذه الآيات جاءت تهديداً، وعيداً لكفار مكة الذين اغتروا بأموالهم وأولادهم ، فبعد أن بين الله -تعالى- الدَّين الحق وقرر التوحيد ، و نوّه بشأن القرآن الكريم وإيمان العلماء الراسخين بالمحكم والمتشابه من آياته ، شرع في ذكر حال أهل الكفر والجحود ، مبينا سبب كفرهم ، مؤكدا أن أموالهم وأولادهم لن تنجيهم من عذاب الله يوم القيامة .

وافتتاح الكلام بحرف التأكيد :(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ) للاهتمام بمضمونه وهو نفى الانتفاع بأموالهم وأولادهم ، وإيثار الموصول لإفادة العموم،ومجيء صلة الموصول فعلاً ماضيا: (كَفَرُوا) لإفادة أن كفرَهم - والعياذ بالله – ثابتٌ لهم متأصلٌ فيهم ، (والمراد من الموصول إما سائر الكفار فإنهم فأخروا بالأموال والأولاد حيث قالوا :(نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلاَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ)[١٠] فرد الله -

---

[٩] آل عمران : ١٠ - ١٢

[١٠] سبأ : ٣٥

تعالى- عليهم بما ترى ،وإما بنو قريظة وبنو النضير حيث كانت معالجتهم بالأموال والأولاد) [١١] ولعل الرأي الأول هو الأقرب للصواب ليكون الحكم عاماً وشاملاً .

وقد اختص الكفار بهذا الحكم لكي يعتبر بذلك المؤمنون و (لأن المؤمنين تغني عنهم أموالهم التي ينفقونها في وجوه البر ، وتنفعهم أولادهم في الآخرة إذ يشفعون فيهم إذا ماتوا صغاراً ، وينفعونهم بالدعاء الصالح كباراً)[١٢] .

وقد جاء النفي بلن :(لَنْ تُغْنِيَ) دون(لا) وإن كانتا أختين في نفي المستقبل ، لأن في(لَنْ) توكيداً وتشديداً ، قال الزمخشري (لَنْ) أخت (لا) في نفي المستقبل ، إلا أن (لَنْ) تنفيه نفياً مُؤَكَّداً [١٣] وخص الأموال والأولاد بالذكر (لأن أكثر الناس يدخلون النار ، لأجل الأموال والأولاد ، فأخبر الله - تعالى- أنهما لا ينفعانهما في الآخرة ، لكيلا يفني الناس أعمارهم لأجل المال والولد)[١٤] .

وقيل إنما خص الله - سبحانه وتعالى - الأموال والأولاد بالذكر (لأن أنفع الجمادات هو الأموال وأنفع الحيوانات هو الولد فبين - تعالى - أن

---

[١١] روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني محمود الألوسى دار إحياء التراث العربي ، بيروت ٤ / ٣٥

[١٢] تفسير البحر المحيط محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي تحقيق عادل أحمد عبد الموجود ، علي محمد معوض دار الكتب العلمية بيروت لبنان الطبعة الأولى ١٩٩٣م ٢/ ٤٠٧ بتصرف

[١٣] تفسير الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل العلامة جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري دار إحياء التراث العربي - بيروت، تحقيق: عبد الرزاق المهدي ٣ / ١٧٢

[١٤] بحر العلوم أبو الليث نصر بن محمد بن إبراهيم السمرقندي دار الفكر بيروت محمود مطرجي ٢٢١/١

الكافر لا ينتفع بهما البتة في الآخرة وذلك يدل على عدم انتفاعه بسائر الأشياء بطريق الأولى)[١٥]

وقدم الأموالَ على الأولاد (لأنها أول عدة يفزع إليها عند نزول الخطوب) [١٦] وكرّر حرف النَّفي مع المعطوف في قوله (وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ) لتأكيد عدم غناء أولادهم عنهم لدفع توّهم ما هو متعارف من أن الأولاد لا يقعدون عن الذبّ عن آبائهم .[١٧] (فكأن نفى نفع الأموال أسهل قبولا من نفى نفع الأولاد ، ولذا زاده توكيدا بعد توكيد)[١٨] وتأتى إضافة الأموال والأولاد إليهم لتزيد في حسرتهم مبينة أنها مع ارتباطهم بها وحبهم لها لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ من عذابِ اللهِّ شَيْئاً ولو قليلا فكان الإيجاز والتنكير في (مِنَ اللهِّ شَيْئًا) ويزداد التهديدُ والوعيدُ بالتذييل :(وَأولئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّار) المؤكَّد بأكثر من مؤكِّد : فأكد بالجملة الاسمية للدلالة على ثبوت الأمر وبالإشارة إليهم ب (أولئِكَ) لاستحضارهم في الأذهان حتى لكأنهم بحيث يشار إليهم ، وللتنبيه على أنهم أحرياء بما سيأتي من الخبر وهو قوله :(هُمْ وَقُودُ النار) وكانت الإشارة للبعيد ، للإشعار بغلوهم في الكفر ، وانغماسهم فيه إلى منتهاه ، كما ذكر ضمير الفصل " هُمْ " المشعر بالاختصاص ، وجعلهم نفس الوقود مبالغة في الاحتراق وكأن النار لا وقود لها إلا هم، (كَدَأبِ آلِ فِرْعَوْنَ) أي شأن هؤلاء في تكذيبك يا محمد

---

[١٥] تفسير حدائق الروح والريحان محمد الأمين الهررى دار طوق النجاة بيروت لبنان الأولى ٢٠٠١م ٥/ ٨١

[١٦] تفسير روح البيان إسماعيل حقي بن مصطفى الإستانبولي دار النشر / دار إحياء التراث العربي ٢/ ٦

[١٧] التحرير والتنوير محمد الطاهر بن عاشور دار سحنون للنشر والتوزيع تونس ١٩٩٧م ٤ / ٦٠

[١٨] زهرة التفاسير محمد أبو زهرة دار النشر : دار الفكر العربي : ١/ ١١٢٠

كشأن آل فرعون والذين من قبلهم في تكذيبهم لأنبيائهم ، وهذه الجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً وكأن سائلا سأل : ما سبب تعذيبهم ؟ ولذا فصلت عن سابقتها لشبه كمال الاتصال ، والدَّأبُ العادةُ والشَّأْنُ هو مِنْ دَأبَ في العَمَل إذا جَدَّ وتَعِبَ [١٩] فهو من باب إطلاق السبب(الدأب) وإرادة المسبب (الجد والعمل) وهذا المجاز يوحى بأنهم حريصون على الكذب جادون فيه يبذلون في تحصيله كل وسعهم ، و الآية تشبه حال المشركين في اجتهادهم في كفرهم وتكذيبهم النبي - صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّم - بحال آل فرعون في تظاهرهم على موسى -عليه السلام -وتكذيبهم بآيات اللهّ التي جاء بها،تشبيها تمثيليا و وجه الشبه كما نرى مركب من كفرهم بالآيات وتكذيبهم رسالة الرسل ،و استمرارهم على ذلك ، وهذا التمثيل زاد المعنى وضوحا ومكن له بنقل المخاطب إلى صورة معلومة له بكل تفاصيلها ،ولذا خَص القرآنُ آلَ فرعون بالذكر من بين الذين سبقوهم في الكفر ، لأنّ هلاكَهم معلوم عند أهل الكتاب ؛ فقد كانوا أقربَ الأمم عهداً بزمان النبي - صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّم - و لأن فرعون ، كان اشد الطغاة طغيانا ، وأكبرهم غرورا وبطرا ، وأكثرهم استهانة بقومه ، واحتقارا لعقولهم وكيانهم [٢٠] ثم استأنف مبينا دأبهم فقال:(كَذَّبُواْ بآيَاتنَا)مضيفا الآيات إليه - تعالى – تعظيما لها وتنبيها على قوة دلالتها وجلاء وضوحها، وكان مقتضى الظاهر أن يقول : كذبوا بآياته إلا أن النظم الكريم اثر الالتفات للتكلم (جريا على سنن الكبرياء ثم عاد النظم مرة

---

[١٩] لسان العرب دأب

[٢٠] التفسير الوسيط محمد سيد طنطاوي موقع التفاسير : ٥٥٤

أخرى إلى الغيبة) في قوله (فَأَخَذَهُمُ الله بذُنُوبِهِمْ): بإظهار الجلالة لتربية المهابة وإدخال الروعة [٢١] .

وقوله (فَأَخَذَهُمُ الله بذُنُوبِهِمْ) بيان لما أصابهم وحل بهم بسبب كفرهم وتكذيبهم ، وفي استعارة الأخذ للانتقام إشارة إلى القوة والغلبة ، و أنَّه أخذ شديد لا هوادة فيه ، وتختم الآية بتذييل مقرر لمضمون ما قبله و مؤكد له :(والله شَدِيدُ العقاب) ، وهكذا يؤكد القرآن الكريم عدم انتفاع الكافرين بأموالهم و أولادهم ، وأنها لا تغنى عنهم من الله شيئا .

الموطن الثاني :

ولترسيخ هذه الحقيقة وتأكيدها آثر النظم تكرارها :ففي نفس السورة (سورة آل عمران) و بعد ست ومائة آية تتكرر نفس الآية (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ مِنَ اللهِّ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)[٢٢] لا فرق بينها وبين سابقتها إلا في تذييل كل منهما : ففي الآية الأولى (وَأُولئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّار) [٢٣] حيث جعلهم نفس الوقود مبالغة في الاحتراق ، و كأن النار ليس لها ما يضرمها إلا هم ، أما تذييل هذه الآية فهو قوله : (وأولئك أَصْحَابُ النار هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) فبين سوء عاقبتهم ، وما أعد لهم من عذاب شديد حيث أخبر- جل ثناؤه - أنهم هم أهل النار وأصحابها (وإنما جعلهم من أصحابها، لأنهم أهلها الذين لا يخرجون منها ولا يفارقونها،كصاحب الرجل لا يفارقه وقرينه الذي لا يزايله) [٢٤] .

---

[٢١] روح المعاني ٣ / ٩٤

[٢٢] آل عمران : ١١٦ ،

[٢٣] آل عمران : ١٠

[٢٤]تفسير الطبري جامع البيان عن تأويل القرآن محمد بن جرير الطبري أحمد محمد شاكر مكتبة ابن تيمية الثانية ٧/ ١٣٤

ثم ذكر أن صحبتهم لها دائمة لا نهاية لها ولا انقطاع فقال :(هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) مؤكِّداً هذا الحكم العادل بعدة مؤكدات فجاءت الجملة الاسمية للدلالة على ثبوت الأمر وتحققه والإشارة إليهم ب (أولئك) لاستحضارهم في الأذهان حتى لكأنهم بحيث يشار إليهم ، وللتنبيه على أنهم أحرياء بما سيأتي من الخبر وهو قوله (أَصْحَابُ النَّار هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)كما أشير إليهم بالبعيد ، للإشعار بغلوهم في الكفر ، وانغماسهم فيه إلى منتهاه ، ثم جاءت جملة (هُمْ فِيهَا خالدون)تأكيدا لما يراد من الجملة الأولى لا سيما وقد جاءت جملة اسمية للإيذان بالدوام والاستمرار و قُدِّم الظرف (فِيهَا) محافظة على رؤوس الآي ، و ذكر ضمير الفصل " هم " للإشارة إلى اختصاصهم بالخلود الدائم والمشار إليه بالوصف (خالدون) .

ولما بين أن أموال الكفار لا تغنى عنهم شيئا (ثم إنهم ربما أنفقوا أموالهم في وجوه الخيرات فيخطر ببال الإنسان أنهم ينتفعون بذلك فأزال الله- تعالى - بهذه الآية تلك الشبهة وبيّن أنهم لا ينتفعون بتلك الإنفاقات وإن كانوا قد قصدوا بها وجه الله فقال : (مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ)[٢٥] .
والمعنى : مثل نفقة الكافرين في بطلانها ، وعدم منفعتها ، كمثل زرع أصابه ريح باردة ، أو نار فأهلكته ، فلم ينتفع أصحابه بشيء منه بعد أن كانوا على طمع من نفعه ، فشَبَّهَ هَيْئَةَ إنْفَاقِهِمُ وعدم انتفاعهم بها ، بِهَيْئَةِ

---

[٢٥] تفسير الفخر الرازي الشهير بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب محمد بن عمر المعروف بالفخر الرازي دار إحياء التراث العربي ٨/ / ٣٠٨

زَرْعٍ أَصَابَتْهُ رِيحٌ بَارِدَةٌ فَأَهْلَكَتْهُ ، تشبيها تمثيليا [٢٦] ، وهذا التشبيه قد أبرز المعقول في صورة المحسوس المشاهد مبالغة في البيان والإيضاح ، ولما كان بطلان ثواب نفقاتهم دائماً وعاماً وشاملاً لكل ما ينفقونه في كل زمان ومكان آثر النظم الكريم الإشارة إلى ذلك بالموصول (ما) وصلته فعلا مضارعا (يُنْفِقُونَ) ثم أتي متعلق ينفقون (فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) حاملا معنى الازدراء والتحقير من شأن هذه الحياة وتصغير أمرها بالإشارة إليها فضلا عن إطلاق لفظ الدناءة عليها ووصف القوم بأنهم ظلموا أنفسهم ليكون إهلاك حرثهم عن سخط أشد وأفظع ،(كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ)أي برد شديد [٢٧] قاله ابن عباس رضي الله تعالى عنهما وجماعة ، وقال الزجاج الصر صوت لهيب النار وقد كانت في تلك الريح ،[٢٨] و نكر للتعظيم ، والمراد تمثيل جميع صدقات الكفار ونفقاتهم بهيئة الحرث الذي هبت عليه ريح فيها صوت شديد مصحوب ببرد فأهلكته (وَمَا ظَلَمَهُمُ اللهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) .

الموطن الثالث :

(وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلاَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ قُلْ إِنَّ رَبِّي

---

[٢٦] هذا على رأى الجمهور وهو أن تشبيه التمثيل ما كان وجه الشبه فيه وصفا منتزعا من متعدد حسيا كان أو غير حسي بخلاف السكاكى الذي قيده بأن يكون غير حقيقي وهذا يقتضى إخراج ما كان وجهه مركبا حسيا أو مركبا عقليا من تشبيه التمثيل أما الجرجاني في أسرار البلاغة فذهب إلى أنه يشترط في التمثيل ألا يكون الوجه المركب حسيا بل عقليا أو اعتباريا وهميا . ينظر الإيضاح في علوم البلاغة الخطيب القزوينى دار الكتب العلمية بيروت لبنان ٢٥٣ ، أسرار البلاغة عبد القاهر الجرجاني محمود محمد شاكر دار المدني بجدة : ٩٠

[٢٧] الصِّرُّ البرد الذي يضرب النَّبات ويحسِّنه لسان العرب : صرر

[٢٨] روح المعاني ٤/ ٣٦

يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ) [٢٩] .

أما آيات سورة سبأ فتأتى في سياق الرد على المترفين المتصدرين دائما مشهد تكذيب الرسل في كل زمان متوهمين أن إمداد الله لهم بالأموال والأولاد دليل على محبته - تعالى - لهم واعتنائه بهم ، وأنه ما كان ليعطيهم هذا في الدنيا ثم يعذبهم في الآخرة ، فرد القرآن عليهم زعمهم مبينا أن الإمداد سنة من سنن الله - تعالى – وأنه خاضع لمشيئته .

و تبدأ الآيات بالتسلية عن قلب النبي - صلى الله عليه وسلم -ببيان حال من سبق من الأمم وما واجهت به رسلها وأنها كحال هؤلاء الحاضرين المكذبين ، وجاء الخبر مُؤَكَّداً (وَمَا أَرْسَلْنَا) لأن مضمونه - لكونه في غاية الغرابة - لا يكاد يصدق ، وأكد النفي بقوله : (مِنْ نَذِيرٍ) للشمول والتعميم إذ المراد جنس النذير وهم الأنبياء عليهم السلام ،(إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا) رؤساؤها المنعمون فيها من أهل المال والجاه فالترَفُ : التَّنَعُّمُ ، والمُتْرَفُ الذي قد أبْطرَتْه النعمةُ [٣٠]وفي بنائه للمجهول تعريض بهم وتذكير لهم بالمنعم سبحانه ، وتخصيص المترفين بالتكذيب (لأنهم في الأغلب أول المكذبين للرسل - عليهم السلام - لما شغلوا به من زخرفة الدنيا وما غلب على قلوبهم منها فهم منهمكون في الشهوات

---

[٢٩] سبأ : ٣٤ - ٣٧

[٣٠] لسان العرب : ترف

والاستهانة بمن لم يحظ منها بخلاف الفقراء فإن قلوبهم لخلوها من ذلك أقبل للخير ؛ ولذلك تراهم أكثر أتباع الأنبياء عليهم السلام [٣١] .

(إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ) إعلان منهم بالكفر جاء مؤكدا بأكثر من مؤكد في إشارة إلى إصرارهم على الكفر، فأكد ب إن والموصول لإرادة الشمول والعموم ، والوصف الدال على ثبوت كفرهم ، و قُدِّم المتعلق (بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ) للاهتمامِ وتوخي المحافظة على الفواصلِ ، ولم يكتف هؤلاء المترفون بإعلان كفرهم ، بل أضافوا إليه اغترارَهم بقوتهم ، وتكذيبَهم بالبعث والجزاء معتقدين أن ما أعطاهم الله من مال وولد كان لرضاه عنهم وعدم سخطه عليهم :(وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلاداً وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ) ويظهر في قولهم هذا مدى تبجحهم ف (نَحْنُ) وأفعل التفضيل ، وتنكير أموالا وأولادا ، ثم نفيهم العذاب عن أنفسهم بالوصف (مُعَذَّبِينَ) وتكرار الضمير:(نَحْنُ) وما يحمله من معاني التعظيم والكبرياء بعد حرف النفي (للإشارة إلى أن المخاطبين أو المؤمنين ليسوا كذلك ، وحاصل قولهم نحن في نعمة لا يشوبها نقمة[٣٢] .

وقدم المال لأنه جاء في سياق الفخر والاعتزاز وهو في الأغلب سببٌ لكثرة الأولاد بالاستكثار من النساء الحرائر والإماء)[٣٣] ولذا قدم ، ويأتي الرد من الله – تعالى- معلناً أن بسطَ الرزق وتضييقه خاضعٌ لحكمته : (قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ) فطابق بين حالتين

---

[٣١] روح المعاني : ٢٢/ ١٤٧

[٣٢] روح المعاني : ٢٢/ ١٤٧

[٣٣] نظم الدرر في تناسب الآيات والسور برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي دار الكتاب الإسلامي القاهرة ١٩٩٥م : ١٥/ ٥١٣

متعاقبتين : بسط الرزق وتضييقه في إشارة إلى طلاقة القدرة وعظيم الحكمة ، (وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ) .

ثم استأنف مبينا ومؤكدا فساد استدلالهم فقال :(وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا) أي ليست الأموال والأولاد بالتي تقرب إلى الله ، وإنما الذي يقرب منه زلفى، الإيمان والعمل الصالح ،وكان مقتضى السياق (وما أموالهم) إلا أن النظم الكريم آثر الالتفات من الغيبة إلى الخطاب توجهاً إليهم بالخطاب ليكون أوقع في توجيه التوبيخ إليهم ، وتنبيها للغافلين إلى سبيل النجاة ، ولما كان المقصود من الجملة الكريمة نفى الانتفاع بالأموال والأولاد في حالة اجتماعهما ، وفى حالة انفراد أحدهما عن الآخر ، كرر حرف النفي مع المعطوف في قوله :(وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ) (لتأكيد تسلط النفي على كلا المذكورْين ليكون كل واحد مقصوداً بنفي كونه مما يقرب إلى الله وملتفتاً إليه) [٣٤] .

وجاء قوله :(بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ) صفةً للأموالِ والأولادِ ؛ لأنَّ جمعَ التكسير غيرَ العاقلِ يُعامَلُ معاملة المؤنثةِ الواحدة [٣٥] .

وعدل عن أن يقال : بالتي تقربكم إلينا ، إلى (تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا) لأن التقريب هنا مجاز في التشريف والكرامة لا تقريب مكان . [٣٦] وأكد القرب بزلفى [٣٧]أي تقربكم تقريباً .

---

[٣٤] التحرير والتنوير : ٢٢/ ٢١٥

[٣٥] الدر المصون في علم الكتاب المكنون أحمد بن يوسف تحقيق أحمد محمد الخراط دار القلم دمشق : ٩ / ١٩٢

[٣٦] التحرير والتنوير: ٢٢/ ٢١٥

[٣٧] الزَّلَفُ والزُّلْفةُ والزُّلْفى القُربةُ والدَّرَجة والمَنزلة لسان العرب :زلف

وقوله : (إِلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا) (إلاَّ) بمعنى (لكنْ) فالاستثناء منقطع لأن الخطاب للكفار ومن آمن ليس داخلا فيهم .

قال سعيد بن جبير : المعنى إلا من أمن وعمل صالحا فلن يضره ماله وولده في الدنيا [٣٨] .

ويأتي الجزاء : (فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا) مستَهَلاً بالفاء لتضمين المبتدأ معنى الشرط ،وجيء باسم الإشارة (فَأُولَئِكَ)للإيذان بعلو رتبتهم وبعد منزلتهم في الفضل وللإشارة إلى أنهم جديرون بما يرد بعد اسم الإشارة من أجل تلك الأوصاف التي تقدمت ، وإضافة جزاء إلى الضعف من إضافة المصدر إلى مفعوله إضافة بيانية ، أي فأولئك لهم الجزاء المضاعف ،ثم زاد وقال (وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ) [٣٩] أي في منازل الجنة العالية آمنون من كل بأس وخوف نعيما دائما خاليا من المكدرات والمنغصات .

الموطن الرابع :

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلاَ مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٥) اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (١٦) لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١٧) [٤٠] .

---

[٣٨] تفسير القرطبي الجامع لأحكام القرآن لأبى عبد الله محمد شمس الدين القرطبي ،أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش دار الكتب المصرية ،الثانية ،١٩٦٤م : ١٤/ ٣٠٥

[٣٩] الغرفة في اللغة عِلِّية من البناء وسمي منازل الجنة غرفا ، المفردات في غريب القرآن الحسين بن محمد بن المفضل المعروف بالراغب الأصفهاني أبو القاسم دار المعرفة ، لبنان، محمد سيد كيلاني : غرف

[٤٠] المجادلة : ١٤ ـ ١٧

أما الحديث عن المال والبنيين في سورة المجادلة فقد جاء في سياق التحذير من أولَئِكَ المنافقين الذين تَوَلَّوْا قوْمًا غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ متدرعين بأيمانهم الكاذبة لنشر بذور الفتنة والفرقة في صفوف المسلمين ، مؤكِّداً عدم انتفاعهم بأموالهم وأولادهم ،كاشفاً عن سوء عاقبتهم ، وما أعد لهم من عذاب شديد .

وقد استهَلت الآياتُ خطابَها لرسول الله -صلى الله عليه واسلم - باستفهام مجازى لتعجيبه من حالهم وما وصل إليه أمرهم ، (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قوْمًا غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ) ومعنى (أَلَمْ تَرَ)[٤١] ألم تعلم فالهمزة تقتضى التقرير ، وصيغة الاستفهام في مثل هذا السياق أشد إثارة لليقظة والالتفات [٤٢] .

وأطلق لفظ الرؤية هاهنا على العلم لأنه علمٌ يقينيٌ أشبه الرؤية فجرى مجرى الرؤية في القوة والجلاء والبعد عن الشبهة ، ثم استعيرت الرؤية للعلم استعارة تبعية ، وعدى الفعل بالى لتضمنه معنى العلم (فاقتضى معنى النظر المؤدي إلى الاعتبار)[٤٣] .

وآثر النظم التعبير عنهم بالموصول (الَّذِينَ) للإشارة إلى قبح فعلهم وشنيع صنيعهم إيماء إلى وجه بناء الخبر : وهو استحقاقهم للعذاب في نار جهنم ، (تَوَلَّوْاْ قوْماً)قال قتادة : هم المنافقون تولوا اليهود [٤٤]

---

[٤١] قال الألوسى (أَلَمْ تَر) هذه الكلمة قد تذكر لمن تقدم علمه فتكون للتعجب والتقرير والتذكير لمن علم بما يأتي كالأحبار وأهل التواريخ وقد تذكر لمن لا يكون كذلك فتكون لتعريفه وتعجيبه وقد اشتهرت في ذلك حتى أجريت مجرى المثل في هذا الباب بأن شبه حال من لم ير الشيء بحال من رآه في أنه لا ينبغي أن يخفى عليه ،وأنه ينبغي أن يتعجب منه ،ثم أجرى الكلام معه كما يجري مع من رأى ، قصدا إلى المبالغة في شهرته وعراقته في التعجب روح المعاني : ٢/ ١٦٠

[٤٢] في ظلال القرآن في ظلال القرآن سيد قطب موقع التفاسير : ٨/ ٣٣

[٤٣] المفردات في غريب القرآن رأى : ٢٠٩

[٤٤] تفسير القرطبي : ١٧/ ٣٠٤

وتنكيرهم لتحقيرهم (غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ) أي (عقابهم وأهانهم) وخصّ الله تعالى اليهود بالغضب ، لشدة عداوتهم للمسلمين ، ومعرفتهم للحق ونكرانهم إياه ، بل وإتيانهم الباطل عمدا ،(مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلا مِنْهُمْ) يقول : (ليس المنافقون من اليهود ولا من المسلمين ،بل هم مذبذبون بين ذلك ، وكانوا يحملون أخبار المسلمين إليهم)[٤٥]

(وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ)

الكذب المحلوف عليه هو ادعاء الإسلام ، وهذه الجملة معطوفة على قوله : (تَوَلَّوْاْ قوْماً) داخلة في حكم التعجيب لتعمدهم الكذب ، وجيء بالمضارع(وَيَحْلِفُونَ) للدلالة على تكرر الحلف وتجدده حسب تكرر مايقتضيه ،(ودل بأداة الاستعلاء على أنهم في غاية الجرأة على استمرارهم على الأيمان الكاذبة بأن التقدير : مجترئين (على الكذب) في دعوى الإسلام وغير ذلك مما يقعون فيه من عظائم الآثام ، فإذا عوتبوا عليه بادروا إلى الأيمان)[٤٦]

(وَهُمْ يَعْلَمُونَ)

جملة حالية قُدِّمَ فيها المسند إليه (هُمْ) على المسند الفعلي (يَعْلَمُونَ) وذلك لتقوية الإسناد فيها وَتأكيده، لبيان مدى جرمهم، وقبح صنيعهم؛ فان الحلف على ما يعلم أنه كذب في غاية الفسق والفجور، ثم توعدهم الله - تعالى- بما أعده لهم من عذاب فقال : (أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ عَذَاباً شَدِيداً) مسندا الإعداد لذاته العلية لإدخال الروع في قلوبهم ، وزيادة في الوعيد

---

[٤٥] تفسير القرطبي : ١٧/ ٣٠٤

[٤٦] نظم الدرر : ١٩ / ٣٨٦

جيء بالعذاب منكرا موصوفا و(المراد نوعا عظيما من العذاب فالنوعية مستفادة من تنكير (عَذَاباً) والعظم من توصيفه بالشدة)[٤٧] .

ثم علل لنزول العذاب بهم فقال: { إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ }أي قبح عملهم مصدرا الجملة بحرف التأكيد للاهتمام بهذا الذم ، مشيراً بـ(كان)الدالة على الزمان الماضي وبالمضارع (يَعْمَلُونَ) إلى أنّه دأبٌ لهم ومتكرِّر منهم ، وبين (يَعْلَمُونَ)و(يَعْمَلُونَ) جناس ناقص ، وهو جناس مطبوع غير متكلف أدى إلى تلاحم الأسلوب وترابطه :حيث ربط بين علمهم بالكذب وعملهم السيئ ، كما جعل للكلام جرسا موسيقيا ملحوظا .

ثم استأنف بقوله :(اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً) استئنافاً بيانياً وكأن سائلا سأل : ما الذي حملهم على الحلف الكاذب؟ فكان هذا الجواب ، والجُنَّةُ الدِّرْعُ وكل ما وَقاك جُنَّةٌ [٤٨]ولما كانت أيمانُهم الكاذبةُ وقايةً لهم من المؤاخذة والعذاب شُبهت بالجُنّة تشبيها بليغا ،كما استُعير اتخاذُ الجنة للحلف استعارةً تبعية كاشفةً عن شدة وَلَعِهم بتلك الأيمان الكاذبة ، وتمسكهم بها، بل وحرصهم عليها حتى أصبحت دأبهم وعادتهم ، (فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ) أي(أعرضوا، أو صرفوا المؤمنين عن إقامة حكم الله عليهم من القتل والسبي وأخذ الأموال، أو منعوا الناس عن الجهاد بأن يتخلفوا ويقتدي بهم غيرهم. وقيل: فصدوا اليهود والمشركين عن الدخول في الإسلام) [٤٩] .

والسبيل في الأصل: هو الطريق وما وضح منه ، وسَبيلِ اللَّهِ : هو المنهج الرباني الموصل لمرضاته -تعالى - وإضافته للذات العلية إضافة

---

[٤٧] حدائق الروح والريحان ٢٩/ ٦٩

[٤٨] لسان العرب جنن

[٤٩] تفسير القرطبي : ١٨/ ١٢٤

تشريف وتعظيم ، وهو هنا مستعمل استعمالا مجازيا على سبيل الاستعارة التصريحية التي صورت جُرمَهم وقبحَ فعلهم خير تصوير وأفضلَ بيان ؛إذ جعلت صدهم عن منهج الله ـ تعالى – صدا عن طريق واضح المعالم ، (فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ) وعيد ثان بوصف آخر للعذاب الملحق بهم فقد وُصِف عذابُهم أولاً بالشديد ،ثم وُصِف ثانياً بالمهين ؛ ذلك لأن الوصف الأول يدل على بلوغ العذاب أشده في إيلامه ، و الثاني يدل على الإهانة مع العذاب، (ولعل الاختلاف راجع إلى اختلاف المعذبين واختلافِ جرمهم فكأن كل واحد من الناس سيأتيه العذاب الذي يُثْعِبه) [٥٠] .

ولما كان العذاب سببا للإهانة كان إسنادها إليه من قبيل المجاز العقلي في إشارة إلى أن العذاب قد تجاوز السببية في الإهانة إلى مباشرتها بنفسه ، ثم بين الحق ـ تعالى ـ أن أموالهم وأولادهم التي كانوا يعدونها للشدائد والمكاره، لا تفيدهم شيئا،وأنهم أصحاب النار ماكثون فيها لا يخرجون منها ولا يفارقونها فقال : (لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) .

الموطن الخامس :

(أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَدًا (٧٧) أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا (٧٨) كَلاَّ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا (٧٩) وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا)[٥١] .

---

[٥٠] تفسير الشعراوي ٨ / ٤٨٦٩ بتصرف

[٥١] مريم : ٧٧ ـ ٨٠

أما حديث القرآن عن المال والبنين في سورة مريم فقد جاء في مقام التعجيب من جُرْأةِ هذا الكافر الجهول الذي زعم –استهزاء- أنه يؤْتى مالا وولداً .

ومناسبة هذه الآيات لما قبلها : أن الله - سبحانه وتعالى- لما ذكر الدلائل على صحة البعث ثم أورد شبهة المنكرين له وأجاب عنها حيث قال :(وَيَقُولُ الإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا أَوَلاَ يَذْكُرُ الإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا)[٥٢] أردف ذلك بذكر مقالتهم التي قالوها استهزاء وطعنا في القول بالحشر والبعث .

وهذه الآيات نزلت في العاص بن وائل ، فقد أخرج البخاري عَنْ مَسْرُوقٍ عَنْ خَبَّابٍ قَالَ كُنْتُ قَيْنًا[٥٣] فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَكَانَ لِي عَلَى الْعَاصِ بْنِ وَائِلٍ دَيْنٌ فَأَتَيْتُهُ أَتَقَاضَاهُ قَالَ لاَ أُعْطِيكَ حَتَّى تَكْفُرَ بِمُحَمَّدٍ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -فَقُلْتُ لاَ أَكْفُرُ حَتَّى يُمِيتَكَ اللهُ ثُمَّ تُبْعَثَ قَالَ دَعْنِي حَتَّى أَمُوتَ وَأُبْعَثَ فَسَأُوتَى مَالاً وَوَلَدًا فَأَقْضِيكَ فَنَزَلَتْ (أَفَرَأَيْتَ) [٥٤] .

وقال بعضُ أهل العلم : إن مراده بقوله : (لأوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَداً) الاستهزاء بالدين وبخباب بن الأرت -رضي الله عنه - والظاهر أنه زعم أنه يؤْتى مالا وولداً قياساً منه للآخرة على الدنيا ، [٥٥] .

وقد استهلت الآيات الكريمة بالتَّعْجِيبِ مِنْ كُفْرِ هَذَا الْكَافِرِ وجرأته الشنيعة وذلك بالاِسْتِفْهَامُ فِي قوله :(أَفَرَأَيْتَ) والفاء للعطف على مقدر

---

[٥٢] مريم: ٦٦ - ٦٨

[٥٣] القَيْنُ الحَدَّادُ وقيل كل صانع قَيْنٌ والجمع أقْيانٌ وقُيُونٌ لسان العرب قين

[٥٤]صحيح البخاري الجامع الصحيح المختصر،محمد بن إسماعيل البخاري : دار ابن كثير ، اليمامة، بيروت ،١٩٨٧م، الطبعة: الثالثة، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا : ٢/ ٧٣٦

[٥٥] أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن محمد المختار الشنقيطى دار عالم الفوائد : ٤ / ٤٥٥

يقتضيه المقام، أي: أنظرت أيها العاقل فرأيت هذا الجاحد الجهول الذي كفر بآياتنا ،وعَطفُ هذه الجملة بالفاء يوحى بالتعقيب وهى مؤخرة عن تقديم الاستفهام ، لأن الاستفهام له الصدارة دائما ،وَالْخِطَابُ لِلنَّبِي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أو لِكُلِّ مَنْ يَصْلُحُ لِلْخِطَابِ ،وَالرُّؤْيَةُ مجاز عن العلم والإخبار : إما على سبيل الاستعارة المكنية حيث شبهت قصة هذا الكافر وجرأته الشنيعة بشيء يرى ويشاهد ، ثم حذف المشبه به ورمز له بشيء من لوازمه وهو الرؤية ، وإما على سبيل المجاز المرسل حيث أطلق السبب وأريد المسبب ؛ لأن مشاهدة الأشياء ورؤيتها طريق إلى الإحاطة بها علماً وإخبارا ، وهذا المجاز يجسد العلم بهذه القصة العجيبة والإحاطة بملابساتها علما يرقى لدرجة المشاهدة البصرية التي هي مِنْ أَقْوَى طُرُق الْعِلْمِ والإخبار ، (وعبر عنه بالموصول : (الَّذِي كَفَرَ) لما في الصلة من منشأ العجب ولا سيما قوله : (لأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَدًا)[٥٦] .

ولأن هذه المقولة يمكن أنْ تُقال في زماننا وفي كل زمان ، إذنْ : فليس المهم الشخص بل القول نفسه)[٥٧] .

و لم يكتف هذا الكافرُ بكفره ، بل أضاف إليه القولَ الباطل المصحوبَ بالقسم الكاذب :(وَقَالَ لأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَدًا) وجيء بالفعل :(أُوتَيَنَّ) مبنياً للمجهول ومُؤَكَّداً بنون التوكيد الثقيلة ؛ إمعانا منه في كفره وجحوده ، و تماديا في السخرية والاستهزاء ، وطمعا في الحصول على ما يدعى ويزعم ، وحيث اتفقت الجملتان (كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لأُوتَيَنَّ) في الخبرية لفظا ومعنى ، و بينهما رابطة قوية ومناسبة صح عطفُ الثانية على الأولى بالواو للتوسط بين الكمالين ، وجاء (مَالاً وَوَلَدًا) منكرين للتنوع

---

[٥٦] التحرير والتنوير ١٦/ ١٥٩

[٥٧] تفسير الشعراوي : ١٥ / ٩١٧٤

والكثرة و للمبالغة فيما يَدَّعيه ، ثم يأتي الرد من الله ـ تعالى ـ على هذا المتبجح

المغرور : (أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا) جاريا عَلَى سبيل السبر والتقسيم كما يعرف عند الأصوليين [٥٨]: فهذا الجاهل الذي يزعم أنه يؤْتى مالا وولداً في الآخرة، لا يخلو إما أن يكون مستندا إلى إطلاعه على الغيب ، وإما أن يكون مستندا إلى عهد أعطاه الله ـ تعالى ـ إياه ومما لا شك فيه أن كلا الأمرين لم يتحققا بالنسبة له ، فهو لم يطلع على الغيب ، ولم يتخذ عند الله عهدا ، فثبت كذبُه وافتراؤه .

وقد اشتمل هذا الرد على نكات بلاغية نذكر منها :الاستفهام المجازى في قوله :(أَطَّلَعَ) والمراد به الإنكار و النفي و التوبيخ ، ثم الاستعارة المكنية في قوله : (أَطَّلَعَ الْغَيْبَ) حيث شبه الغيب المجهول وما يحمل من أسرار ، بجبل وعْرٍ صعبِ المرتقي ، ثم حذف المشبه به ، ورمز له بشيء من لوازمه وهو الاطلاع والارتقاء ،ثم الإتيان بصيغة الافتعال في (أَطَّلَعَ و اتَّخَذَ) للدالَّة على التكلّف للمبالغة في تحصيل الارتقاء و الاتخاذ ، ومجيء الظرف (عِنْدَ) زيادة في التأكيد ، وإيثار اسم (الرحمن) لما فيه من صفة الرحمانية التي تناسب المعونة على الوفاء ، ثم تنكير (عَهْدًا) لإفادة التعميم ونفي اتخاذه أي عهد ، كل ذلك لبيان مدى عجز هذا

---

٥٨ السبر و التقسيم وهو : ذكر أوصاف في الأصل المقيس عليه محصورة وإبطال بعضها بدليل ، فيتعين الباقي للعلية . سمي بذلك ؛ لأن الناظر يقسم الصفات ويختبر صلاحية كل واحد منها للعلية ، فيبطل ما لا يصلح ويبقي ما يصلح ،والسبر في اللغة : هو الاختبار . التحبير شرح التحرير في أصول الفقه علاء الدين المرداوي الحنبلي تحقيق د. عبد الرحمن الجبرين، د. عوض القرني، د. أحمد السراح مكتبة الرشد ٢٠٠٠م ٧/ ٣٣٥١.

الكذاب المفترى وصغر شأنه ، أمام عظم الغيب الذي اختص الله ـ تعالى ـ بعلمه ،

ثم يكشف النظمُ الكريمُ عن المصير السيئ الذي سَيَؤُولُ إليه هذا الشقي وأمثالُه مكذباً و نافياً مقولته ب(كَلاَّ) التي تفيد الزجر والردع مهدداً إياه بكتابة كل أقواله ، بل و مجازاته عليها : (سَنَكْتُبُ) حيث كنى بالكتابة عما يترتب عليها من الجزاء ، مصدرا الفعل بسين التسويف لبيان أنَّ ذٰلِكَ وَاقِعٌ لاَ مَحَالَة مستقبلا ، أو لعل المراد بالكتابة الحصر فيكون الإسناد من باب المجاز العقلي حيث اسند الفعلُ إلى سببه، أي نأمر الملائكة بالكتابة ،ثم بين أنه – سبحانه وتعالى ـ سيزيده بذلك عذابا فوق عذاب كفره وسيضاعفه له مؤكِّداً الفعل بالمصدر فقال : (وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا) زيادة في تحقيق المد وتقريره ، و إيماء إلى شناعة جرمه .

ثم يستمر السياقُ في تهديده بقُرْبِ هَلاَكِهِ و تَذْكِيره بالْمَوْتِ فجاء قوله : (وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا) معطوفاً على سابقه للتوسط بين الكمالين حيث اتفقت الجملتان (وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا) ، (وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ) في الخبرية لفظا ومعنى ، و بينهما رابطة قوية ومناسبة صح عطفُ الثانية على الأولى بالواو ،وكذلك قوله (وَيَأْتِينا فَرْداً) .

ولما كان الإرث من أقوى أسباب الملك آثر النظمُ الإشارةَ إلى حصوله على ما تمناه بالاستعارة التبعية: (وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ)حيث استعير الميراثُ للمنح والعطاء بدون استحقاق ثم اشتق منه (نرث) على سبيل الاستعارة التبعية ، وهذه الاستعارة تكشف عن مقدار العذاب الذي سيلاقيه حيث أعِدَ له عطاءٌ يُقْضِي به إلَى الذُّلِّ وَالْهَوَانِ ، ولا يخفى أن الآيات قد اشتملت على ما يعرف بتوافق الفواصل ومراعاة لرؤوس الآيات، وهو من المحسنات البديعية ، ويسمى في علم البديع السجع المرصع :(وَوَلَدًا

عَهْدًا مَدًّا فَرْدًا)وهو كما نرى سجع رصين غير متكلف، له جرس وإيقاع قوي على السامع ، هذا وقد منع الجمهورُ أنْ يُقال في القرآن سَجْعٌ ،(لأن أصله من سجع الطير فشرف القرآن أن يستعار لشيء منه لفظ أصله مهمل ولأجل تشريفه عن مشاركة غيره من الكلام الحادث في وصفه بذلك ولأن القرآن من صفاته تعالى فلا يجوز وصفه بصفة لم يرد الإذن بها) [٥٩]

الموطن السادس :

(فَلاَ تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ (٨) وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ (٩) وَلاَ تُطِعْ كُلَّ حَلاَّفٍ مَهِينٍ (١٠) هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ (١١) مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (١٢) عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ (١٣) أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ (١٤) إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ (١٥) [٦٠] .

أما الحديث عن المال والبنين في سورة القلم فقد جاء في ثنايا ذكر أوصاف بعض المكذبين كالوليد بن المغيرة ومن كان على شاكلته في الكفر ممن طغوا بأموالهم وأولادهم وكذبوا رسول الله ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ فطالبه ربه ألا يطيعهم ولا يلين معهم .

والفاء في قوله :(فَلاَ تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ) هي الفصيحة إذ هي مفصحة عن كلام سابق ترتب عليه ما بعدها ترتب الجزاء على الشرط والتقدير: إذا علمت ذلك فلا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ ، وآثر النظم النهى عن الطاعة مبالغة في الزجر والتنفير ،كما آثر وصف المكذبين دون غيره من أوصاف لشمول الكذب لكل الرذائل ، (وفى هذا النهى إيماء إلى النهى عن مداراتهم ،

---

[٥٩] الإتقان في علوم القرآن : ٢/ ٢٦٢

[٦٠] القلم ١٠- ١٥

ومداهنتهم استجلاباً لقلوبهم وجذبا لهم إلى إتباعه - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) [٦١] (وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ) الإدهان المُقاربَة في الكلام والتَّليين في القول[٦٢] (وأصله أن يجعل على الشيء دهنا لكي يلين أو لكي يحسن شكله ، ثم استعير للملاينة والمساهلة مع الغير) [٦٣] .

قال ابن عباس: (وَدُّوا لو تُرَخِّص لهم فَيُرَخِّصون ،وقال مجاهد: ودوا لو تركن إلى آلهتهم وتترك ما أنت عليه من الحق)[٦٤].

ثم بيّن بعضَ صفات أولئك المكذّبين فقال :(وَلاَ تُطِعْ كُلَّ حَلاَّفٍ مَّهِينٍ) مكررا النهى زيادة في وعيدهم و مبالغة في شدة التحذير منهم ،وَالْحَلاَّفُ: كثير الحلف بالباطل ، و صِيغَةُ الْمُبَالَغَةِ كِنَايَةٌ عَنْ تَعَمُّدِ الْحِنْثِ ، وتقديم هذا الوصف على سائر الأوصاف الزاجرة عن الطاعة لكونه أدخل في الزجر (وكفى به مزجرة لمن اعتاد الحلف)[٦٥] .

و المَّهينُ : هو الضعيف الحقير(هَمَّازٍ) عياب طعان قال أبو حيان : (الهمز : أصله في اللغة الضرب طعناً باليد أو بالعصا أو نحوها ، ثم استعير للذي ينال بلسانه ، وبعينه وإشارته) [٦٦] .

(مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ): أي يمشي بالنميمة بين الناس ليفسد بينهم ، (وَالْمَشْيُ: اسْتِعَارَةٌ لِتَشْوِيهِ حَالِهِ بِأَنَّهُ يَتَجَشَّمُ الْمَشَقَّةَ لِأَجْلِ النَّمِيمَةِ ، فَذِكْرُ الْمَشْيِ بِالنَّمِيمَةِ فِيهِ تَصْوِيرٌ لِحَالِ النَّمَّامِ) [٦٧] وأصل النم : الهمس

---

[٦١] حدائق الروح والريحان ٣٠ / ٨٧
[٦٢] لسان العرب دهن
[٦٣] الوسيط لسيد طنطاوي : ٤٢٨٦
[٦٤] تفسير ابن كثير : ٤ / ٤٠٤
[٦٥] الكشاف : ٤/ ٥٩١
[٦٦] تفسير البحر المحيط : ٨/ ٣٠٠
[٦٧] التحرير والتنوير ٢٩/ ٧٣

والحركة الخفيفة ثم استعملت في السعي بين الناس بالفساد على سبيل الاستعارة .

(مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ) : أي بخيل بالمال،وقد جاءت صفات الذم السابقة (حَلاَّفٍ، هَمَّازٍ، مَشَّاءٍ، مَنَّاع) بصيغة المبالغة ، للإشعار برسوخه فيها ، (مُعْتَدٍ أَثِيمٍ): متجاوز للحد ، مبالغ في ارتكابه للآثام ، وقد قرَنَ بَيْنَهما لِمُنَاسَبَةِ الْخُصُوص وَالْعُمُوم .

(عُتُلٍّ) :العتل (الجافي الشديد في كفره ، وقيل: إنه الذي يعتل الناس فيجرهم إلى حبس أو عذاب)[٦٨] .

(بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ) قال الزمخشريُّ : (بَعْدَ ذَٰلِكَ) أي : بعدما عُدَّ له من المثالب ، والنقائص [٦٩] والزنيم : هو الملصق بالقوم ليس منهم.[٧٠] وأصلُه مِنْ الزَّنَمَةِ : وهي الهنة من جلد الماعز تقطع فتخلى معلقة في حلقها ، لأنه زيادة معلقة بغير أهله [٧١] استعير للدَّعِيِّ لأنه كالمُعَلَّق بما ليس منه .

وقد آثر النظم الكريم مجيء الظرف (بَعْدَ ذَٰلِكَ) (للإشارة إلى أن هذين الوصفين وهو كونه عتلاً زنيماً أشد معايبه لأنه إذا كان جافياً غليظ الطبع قسا قلبُه واجترأ على كل معصية ، ولأن الغالب أن النطفة إذا خبثت خبث الولد) [٧٢] .

وقوله : (أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ) متعلق بقوله قبل ذلك (وَلاَ تُطِعْ كُلَّ حَلاَّفٍ) أي : ولا تطع من كانت هذه صفاته لكونه ذا مال وبنين ، فإن

---

[٦٨] تفسير القرطبي : ١٨/ ٢٣٢
[٦٩] الكشاف : ٤/ ٥٩٢
[٧٠] تفسير الطبري : ٢٣ / ٥٣٨
[٧١] تفسير الكشاف : ٤/ ٥٩٢
[٧٢] تفسير الفخر الرازي :٣٠/٦٠٧

مالَه وولدَه لن يغنى عنه من الله - تعالى - شيئا ، وقُدِّم المالُ لأنه جاء في سياق نصرةٍ ومعاونة وغلبة ، فاقتضى المقام تقديمه ، وحتى تختم الآية بالبنين رعاية لفواصل الآي ، وعناية بتوافق رؤوسها ، ثم جاء قوله :(إذا تتلى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قالَ أسَاطِيرُ الأولين) بيانا لذلك المعتدي الأثيم (أي جعل مجازاة النعم التي خولها من البنين والمال الكفر بآياتنا ،ثم تختم الآيات بأشد أنواع الوعيد لمن كانت هذه صفاته فقال :(سَنَسِمُهُ عَلَى الخرطوم)وقد جاء مفصولا للاسْتِئْنَاف البَيَانِي وكأن سائلا سأل مَا جَزَاءُ من اتصف بهَذِهِ الأوْصَافِ مِنَ اللهِّ - تعالى - فقال : (سَنَسِمُهُ عَلَى الخرطوم)والوَسْمُ :(أثرُ كيٍّة تقول : مَوْسومٌ أي قد وُسِم بسِمةٍ يُعرفُ بها إمّا كيٌّة وإمّا قطعٌ في أذنٍ)[٧٣] والخُرْطُوم للفِيل وهو أنفه [٧٤] .

وقد استعير الخرطوم لأنفه زيادة في إهانته والاستخفاف به ' (قال المبرد الخرطوم هاهنا الأنف ، وإنما ذكر هذا اللفظ على سبيل الاستخفاف به لأن التعبير عن أعضاء الناس بالأسماء الموضوعة لأشباه تلك الأعضاء من الحيوانات يكون استخفافاً ، كما يعبر عن شفاه الناس بالمشافر وعن أيديهم وأرجلهم بالأظلاف والحوافر)[٧٥].

وجاء التعبير بالوسم على الخرطوم في غاية الإذلال والإهانة ؛ لأن السمة على الوجه شين فكيف على أكرم موضع من الوجه) [٧٦] .

(قال العتيبى لا نعلم أن الله سبحانه وصف أحدا ولا ذكر من عيوبه ما ذكر من عيوب الوليد بن المغيرة فألحق به عارا لا يفارقه أبدا)[٧٧] .

---

[٧٣] لسان العرب وسم

[٧٤] لسان العرب خرطم

[٧٥] تفسير الفخر الرازي :٣٠/ ٦٠٨

[٧٦] تفسير الفخر الرازي :٣٠/ ٦٠٨

و هذه الآيات وان كانت قد نزلت في الوليد بن المغيرة المخزومي إلا إنها عامة في كل من اتصف بهذه الصفات ولذا فقد تكرر الوعيد والتهديد في سورة المدثر للوليد بن المغيرة، وأمثاله من زعماء الشرك ممن أعطاهم الله المال والولد والجاه والسلطان فازدادوا بها بطرا ، قال تعالى :

الموطن السابع :

(ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (١١) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَمْدُودًا (١٢) وَبَنِينَ شُهُودًا (١٣) وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا (١٤) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (١٥) كَلاَّ إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا (١٦) سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا (١٧) [٧٨] هذه الآيات كما أخرج الحاكم عن ابن عباس: نزلت في الوليد بن المغيرة [٧٩] حين استمع إلى القرآن من النبي -صلّى اللهّ عليه وسلّم - فكأنه رقّ له، فبلغ ذلك أبا جهل، فأنكر عليه ذلك ، طالبا منه أن يقول في القران قولا يظهر مدى كراهيته له فقال عنه إِنَّهُ سِحْرٌ يُؤْثَرُ .

وقد اسْتُهِلَّتْ الآياتُ بتهديدٍ ووعيدٍ لهذا الخبيث (ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا) والخطاب لرسولِ الله- صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم - تسرية له ، وتطييباً لخاطره ،(وإنما خُص بالذكر لاختصاصه بكفر النعمة وإيذاء الرسول عليه السلام)[٨٠] وجيء بالموصول وصلته في قوله : (وَمَنْ

---

[٧٧] حدائق الروح والريحان ٣٠ / ١٣٧

[٧٨] المدثر : ١١ – ١٧

[٧٩] المستدرك على الصحيحين للإمام الحافظ أبى عبدا لله الحاكم النيسابوري دار الحرمين للطباعة والنشر الطبعة الأولى ١٩٩٧م ٢/ ٥٩٦ رقم ٣٩٢٩

[٨٠] تفسير القرطبي ١٩/ ٧١

خَلَقْتُ وَحِيدًا) لإدماج تسجيل كفران الوليد النعمة في الوعيد والتهديد [٨١] .

وآثر النظم الوصفَ (وَحِيدًا) لأن الوليد كان يسمى الوحيد في قومه زعما منهم أنه لا نظير له في وجاهته ولا في ماله ، وكان يفتخر بنفسه ويقول :(أنا الوحيدُ بنُ الوحيد، ليس لي في العرب نظير، ولا لأبي المغيرة نظير) [٨٢] فسماه الله بالوحيد (تهكما به واستهزاء بلقبه كقوله تعالى (ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ)[٨٣] وصرفا له عن الغرض الذي يؤمونه من مدحه إلى جهة ذمه بكونه وحيدا من المال والولد أو وحيدا من أبيه ونَسَبه لأنه كان زنيما وهو من ألحق بالقوم وليس منهم أو وحيدا في الشرارة والخباثة والدناءة)[٨٤] .

هذا على أن (وَحِيداً) حال من الضمير المحذوف العائد على " مَنْ " أي : ذَرْنِي وَمَنْ خلقتُه وَحِيدًا فريداً لا مال له ولا ولد ، ويجوز أن يكون (وَحِيداً) حال من الياء في (ذَرْنِي) أي : ذَرْنِي وحدي معه فأنا أغنيك في الانتقام منه ، أو من التاء في (خَلَقْتُ) أي : خلقتُه وحدي ، لم يشركني في خلقه أحد ، فأنا أهلكه دون أن أحتاج إلى ناصر في إهلاكه ، ثم عطف على جملة الصلة (وَجَعَلْتُ لَه مَالا مَّمْدُودًا) أي واسعًا كثيرًا ، قال ابن عباس : كان له بين مكة والطائف إبل وحجور ونعم وجنان وعبيد وجوار ، وقيل : كان صاحب زرع وضرع وتجارة ، وقال النعمان بن بشير : المال الممدود هو الأرض لأنها مُدت)[٨٥] .

---

[٨١] التحرير والتنوير ٢٩/ ٣٠٣

[٨٢] تفسير القرطبي (١٩/ ٧١):

[٨٣] الدخان: ٤٩

[٨٤] تفسير روح البيان : ١٠/ ٢٢٣

[٨٥] تفسير البحر المحيط : ٨/ ٣٦٥

(وَبَنِينَ شُهُوداً) أي حضورا لا يغيبون عنه في تصرف ، وقيل: شهودا، أي إذا ذُكِرَ ذُكِرُوا معه ، و كانوا عشرة ، وقيل: اثنا عشر،قال سعيد بن جبير: كانوا ثلاثة عشر ولدا ، فما زال الوليد بعد نزول هذه الآية في نقصان من ماله وولده حتى هلك) [٨٦] .

ثم يأتي قوله : (وَمَهَّدتّ لَهُ تَمْهِيداً)[٨٧] كاشفا عن مدى التيسير الذي كان يتمتع به هذا العنيد حتى أصبح في ببلدته آمنا مطمئناً فاستعير التمهيدُ لتيسير أموره ونفاذ كلمته في قومه بحيث لا يعسر عليه مطلب ولا يستعصى عليه أمر) [٨٨] كما أكد (مهَّدْتُ) بالمصدر (تَمْهِيداً) لإفادة التعظيم والتمكين ، (ثُمَّ يَطْمَعُ) (ثُمَّ) للتراخي الرتبي ، أي وأعظم من ذلك طمعه في الزيادة ، (وهذا استبعاد واستنكار لطمعه وحرصه ، يعنى أنه لا مزيد على ما أوتى سعة وكثرة)[٨٩] .

وآثر النظم (أنْ أزيدَ) بإسنادِ الزِّيَادَةِ إِلَى ضَمِيرِ الْجَلاَلَةِ إِدْمَاجًا بِتَذْكِيرِهِ بِأَنَّ مَا طَمِعَ فِيهِ هُوَ مِنْ عِنْدِ الَّذِي كَفَرَ هُوَ بِنِعْمَتِهِ فَأَشْرَكَ بِهِ غَيْرَهُ فِي الْعِبَادَة ؛ وَلِهَذِهِ النُّكْتَةِ عُدِلَ عَنْ أَنْ يُقَالَ: يَطْمَعُ فِي الزِّيَادَةِ، أَوْ يَطْمَعُ أَنْ يُزَادَ)[٩٠] .

ثم يأتي قطع الرجاء وردع الطمع في الزيادة ب(كَلا) : مشفوعا بالتعليل على وجه الاستئناف أو ما يسمى بشبه كمال الاتصال (إنَّه كان

---

[٨٦] ينظر تفسير القرطبي (١٩/ ٧١)

[٨٧] أصل المَهْد التَّوْثِيرُ يقال مَهَدْتُ لنَفْسي ومَهَّدت أي جعلت لها مكاناً وَطيئاً سهلاً ومَهَدَ لنفسه خيراً ، ومَهْدُ الصبي موضعه الذي يُهَيَّأ له ويُوَطَّأ لينام فيه لسان العرب مَهَدَ

[٨٨] ينظر التحرير والتنوير ٢٩ / ٣٠٤

[٨٩] تفسير الكشاف : ٤/ ٦٥٠

[٩٠] التحرير والتنوير ٢٩/ ٣٠٥

لآيَاتِنَا عَنِيداً) وكأن سائلا سأل : لم لا يزاد ؟ فقيل : (إنُّه كان لآيَاتِنَا عَنِيداً) وزيادة في تقبيح جرمه وتهويل شأنه أضيفت الآياتُ إلى ضمير الجلالة (لآيَاتِنَا عَنِيدًا) . قوله :(سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً) أي (سأغشيه عقبة شاقة المصعد ،وهو مثل لما يلقى من العذاب الشاق الصعد الذي لا يطاق) [٩١] أو كناية عن العذاب الشديد الذي أعده له و(كأن الله -تعالى- عاجله بالفقر بعد الغنى ، والذل بعد العز في الدنيا بعناده ، ويعاقب في الآخرة بأشدّ العذاب وأفظعه لبلوغه بالعناد غايته وأقصاه في تفكيره ، وتسميته القرآن سحراً)[٩٢]

الموطن الثامن :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٣) قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٢٤) [٩٣]

أما هذه الآيات فقد نزلت في المهاجرين فإنهم لما أمروا بالهجرة قالوا إن هاجرنا قطعنا آباءنا وأبناءنا وعشيرتنا وذهبت تجاراتنا وهلكت أموالنا وخربت ديارنا وبقينا ضائعين فنزلت فهاجروا فجعل الرجل يأتيه ابنه أو أبوه أو أخوه أو بعض أقاربه فلا يلتفت إليه ولا ينزله ولا ينفق

---

[٩١] تفسير الكشاف: ٤/٦٥٠

[٩٢] تفسير الكشاف ٦/ ٢٥٦

[٩٣] التوبة : ٢٣ ، ٢٤

عليه ثم رخص لهم في ذلك ، وقيل نزلت في التسعة الذين ارتدوا ولحقوا بمكة نهيا عن موالاتهم [٩٤] .

وبعد التشويق ولفت الانتباه وتهيئة النفوس وإيقاظ المشاعر بهذا النداء الباعث على الامتثال لما يرد بعده يأتي النهى عن موالاة الكفار، ولو كانوا آباءً أو إخواناً فالقربُ قربُ الأديان لا قرب الأبدان ، جاء التعبيرُ بالاتخاذ الذي هو افتعال من الأخذ ، للمبالغة في نهيهم عن موالاة هؤلاء الأقربين إذ الاتخاذ يشعر بشدة الملابسة والملازمة وخص الله – سبحانه- الآباء والإخوة لشدة قرابتهم ، (وليعلم أن من دونهم أوْلَى بحُكْمِ النَّهْي وأحرى، ولم يذكر الأبناء في هذه الآية إذ الأغلب من البشر أن الأبناء هم التبع للآباء)[٩٥] .

ثم يأتي القيد (إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ)دالاً على مدى حبهم للكفر - أعاذنا الله – وتمكنه منهم ومبالغتهم في التمسك به ولذا آثر النظم (اسْتَحَبُّوا) بالسِّينِ وَالتَّاءِ تأكيدا على أن الكفر مخالف للفطرة الإيمانية للإنسان ،(لأن الإنسان بفطرته مؤمن محب للإيمان ، فإن حاول أن يحب غير الإيمان ، لا بد أن يتكلف ذلك؛ وأن يفتعله لأنه غير مفطور عليه؛ وليس من طبيعته)[٩٦] .

ثم تأتي الجملة الشرطية (وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) مؤكَّدَة بأكثر من مُؤَكِّد حاملة تهديداً ووعيداً لمن يفعل ذلك مبينة مدى ظلمهم حيث ربط بفاء السببية بين موالاة الكفار والحكم بالظلم عليهم ،

---

[٩٤] تفسير أبي السعود المسمى إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم لقاضى القضاة الامام أبى السعود دار إحياء التراث العربي بيروت : ٤/ ٥٤

[٩٥] تفسير القرطبي : ٨/ ٩٤

[٩٦] تفسير الشعراوي أخبار اليوم دار الكتب والمكتبات : ٨/ ٤٩٨٣

وعبر بالإشارة مع وجود ما يغنى عنها لتمييزهم أكمل تمييز زيادة في إيضاح الحكم ، وأردف ذلك بقوله " هُمُ " للتأكيد ثم عبر بالجملة الاسمية للإشارة إلى أن الظلم شأن من شئونهم ووصف ملازم لهم ما داموا متمسكين بموالاتهم ، ثم يأتي قصر الظلم عليهم بتعريف الجزأين قصرَ صفة على موصوف قصراً حقيقياً ادعائياً ،أو مجازياً بمَعْنَى أنَّ ظُلْمَ غَيْرِهِمْ كَلاَ ظُلْمَ بالنِّسْبَةِ لِعَظَمَةِ ظُلْمِهِمْ .

ثُمَّ يأتي الأمر من الله – تَعَالَى - لرسوله - صلى الله عليه وسلم- أن يتوعد مَنْ آثَرَ حُبَّ القَرَابَةِ وَالعَشِيرَةِ وَالأَهْلِ وَالتِّجَارَةِ وَالأَمْوَالِ وَالمَسَاكِنِ عَلَى حُبِّ اللهِ وَرَسُولِهِ وَالجِهَادِ فِي سَبِيلِهِ ، بِأَنْ يَتَرَبَّصُوا أَمْرَ اللهِ فِيهِمْ ، وَيَنْتَظِرُوا عِقَابَهُ وَنَكَالَهُ بِهِمْ فقال :(قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا) وَابْتِدَاءُ الْخِطَابِ بِ (قُلْ) فيه إشارة إلى الاهتمام بالمقول ، والمتأمل في هذه الآية الكريمة يجد أن النظم الكريم أتى بمراحل القرابة (فذكر أولاً صلة النسب من آباء وأبناء وإخوة ، ثم الزواج ، وهو وسيلة التكاثر ، ثم الأهل والعشيرة ، ثم الأموال التي نملكها فعلاً ، ثم الأموال التي نريد أن نكسبها ، ثم المساكن التي نرضى بها)[٩٧] وجاء الترتيب مطابقا للواقع والمنطق :(فذكر الأبناء لكون الكلام عن المحبة ، وهم أعلق بالنفس ، بخلاف الآية قبلها فلم يذكروا ، لأن المقصود منها الرأي والمشورة . وقدّم الآباء لأنهم الذي يجب برهم وإكرامهم وحبهم ، وثنى بالأبناء لكونهم أعلق بالقلوب ، ولما ذكر الأصل والفرع ذكر الحاشية

---

[٩٧] تفسير الشعراوي : ٨/ ٤٩٨٨

وهي الإخوان ، ثم ذكر الأزواج وهن في المحبة والإيثار كالأبناء ، ثم الأبعد بعد الأقرب في القرابة فقال : وعشيرتكم [٩٨].

وفي الكلام حذف أي : أحب إليكم من امتثال أمر الله -تعالى -ورسوله في الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام .

وقوله :{ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا } أي: اكتسبتموها وتعبتم في تحصيلها، خصها بالذكر، لأنها أرغب عند أهلها، وصاحبها أشد حرصا عليها ممن تأتيه الأموال من غير تعب ولا كَدّ [٩٩] .

وأصل القرف والاقتراف قشر اللحاء عن الشجر ، والجلدة عن الجرح ثم استعير الاقتراف للاكتساب مطلقاً [١٠٠] .

كما َخُصَّ الْجِهَادُ أيضا بالذِّكْرِ : تَنْوِيهًا بِشَأْنِهِ ،و لأنه طريق إعزاز الأمة وإعلاء هيبتها وقوتها علاوة على ما فيه من خطر على الأرواح والأبدان .

وجاء الأمر بالتربص (فَتَرَبَّصُوا) ومعناه التهديد. وَالأَمْرُ: اسْمٌ مُبْهَمٌ بِمَعْنَى الشَّيْءِ وَالشَّأْنِ، وَالْمَقْصُودُ مِنْ هَذَا الإِبْهَامِ التَّهْوِيلُ لِتَذْهَبَ نُفُوسُ الْمُهَدَّدِينَ كُلَّ مَذْهَبٍ مُحْتَمَلٍ،[١٠١] لاسيما وقد أضيف الأمر إلى ذات الله تعالى فزاد من التهويل ثم جاء التَذْييلُ (وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ) يحمل تهديدا بتحقق فسقهم وتعريضا بدخولهم في زمرة الفاسقين .

---

[٩٨] تفسير البحر المحيط بتصرف (٥/ ٢٤)

[٩٩] تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان المعروف بتفسير السعدي عبد الرحمن بن ناصر السعدي عبد الرحمن بن معلا اللويحق مؤسسة الرسالة الأولى ٢٠٠٢م : ٣٣٢

[١٠٠] الوسيط لسيد طنطاوي : ١٩١٢

[١٠١] التحرير والتنوير ١٠/ ١٥٤

وللمرة الثانية يواصل القرآن الكريم حديثه عن المال مقرونا بالبنين في سورة التوبة .

الموطن التاسع :

قال تعالى : (الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٦٧) وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ (٦٨) كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلاَدًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاَقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلاَقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلاَقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٦٩) [١٠٢] .

فبعد الحديث عن النفاق وبيان أنه حَالَةٌ وَاحِدَةٌ وَأَنَّ أَصْحَابَهُ سَوَاء يأتي الحديث عن الأَمْوَال والأَوْلاَد ، و تُبَينُ هذه الآياتُ وما بعدها أَنَّ النِّفَاقَ حَالَةٌ وَاحِدَةٌ وَأَنَّ أَصْحَابَهُ سَوَاء : إناثُهم كذكورهم ، فهم سلالةٌ خبيثةٌ وتُشبيهُهم بمن قبلهم من المنافقينَ والكفار، فهم مثلُهم مغرورون بالدنيا، لكنَّ السابقين كانوا أشدَّ منهم قوةً، وأكثرَ أموالاً و أولاداً.

ومطلعُ الآياتِ إخبارٌ من اللّه ـ تعالى ـ بأن المنافقين والمنافقات صنفٌ واحدٌ متشابهون في النفاق والبعدِ عن الإيمان كأبعاضِ الشيءِ الواحدِ .

وجاءَ قوله : (الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ) مفصولاً عما قبْلَهَ:وهو قوله :(إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ)[١٠٣] إمَّا

---

[١٠٢] التوبة : ٦٧ ، ٦٩

[١٠٣] التوبة : ٦٦

لأنه كَالْبَيَانِ لِلطَّائِفَةِ الْمُسْتَحِقَّةِ الْعَذَابَ، وَإِمَّا أنه اسْتِئْنَافٌ ابْتِدَائِيٌّ ، ثُمَّ بَيَّنَ - تعالى - هَذَا التَّشَابُهَ وفسره بقوله :(يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ) في مقابلة أَظْهَرَتْ مدى انحرافهم عن الفِطْرَةِ السَّلِيمَةِ التي فَطَرَ اللهُ الناسَ عليها ،كما جسَّد بطريق الكناية صفة أخرى من صفاتهم ، فكنى بقبض اليد عن البخل والشح ، لأن المعطي يمُد يده ويبسطها بالعطاء ، بخلاف الممسك فإنه يقبض يده والكناية كما هو معلوم أبلغ من التصريح ؛ لأَنَّها كإثبات الشيء بالدليل و البرهان ، وآثر النظمُ الكريمُ إثبات تلك الصفات الخبيثة بصيغة المضارع (يَأْمُرُونَ وَيَنْهَوْنَ وَيَقْبِضُونَ) للدلالة على تجدّد تلك الأفعال وتكرّرها منهم ، (وَاقْتَصَرَ مِنْ مُنْكَرَاتِهِمُ الْفِعْلِيَّةِ عَلَى هَذَا ؛ لأَنَّهُ - أي الأمر بالمنكر والنهى عن المعروف - شَرُّهَا وَأَضَرُّهَا ، وَأَقْوَاهَا دَلاَلَةً عَلَى النِّفَاقِ ،كَمَا أَنَّ الإِنْفَاقَ فِي سَبِيلِ اللهِ أَقْوَى الأَيَاتِ عَلَى الإِيمَانِ ،[١٠٤] .

ثم استأنف بذكر صفة أخرى من صفات نفاقهم وهى نسيانهم لله – تعالى- فكان جزاؤهم الحرمان من أجره وثوابه ، وقوله :(نَسُوا اللَّهَ) مجاز لأن النسيان هنا غير وارد فهو بالنسبة إليهم مسقط التكليف عنهم، وهو بالنسبة إليه -تعالى - محال، ولذلك فهو واردٌ إما على سبيل المجاز المرسل لعلاقة اللازمية دل بذكر الملزوم وهو (النسيان) على اللازم وهو (الترك) ، و إما على سبيل المشاكلة [١٠٥] لأن النسيان بمعناه الحقيقي محالة على الله - تعالى – فإطلاقه هنا من باب المشاكلة وهو

---

[١٠٤] تفسير المنار محمد رشيد رضا- الشيخ محمد عبده دار المنار الثانية ١٩٤٧م : ١٠/ ٦١٩

[١٠٥] المشاكلة وهي ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته تحقيقاكقوله تعالى : (نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ) أو تقديرا كقوله تعالى (صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً) البقرة: ١٣٨] ينظر الإيضاح : ٣٦٠

كقوله تعالى : (يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ) [١٠٦] (وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا)[١٠٧]وقول عمرو ابن كلثوم :

ألا لا يَجْهَلَنْ أحدٌ علينا ... فَنَجْهَلَ فوقَ جَهْلِ الجاهِلينا

ثم جاء الحكمُ عليم بالفسق حكماً مؤكَّدا بأكثرَ من مؤكِّد بدءاً ب(إنَّ) ثم ضمير الفصل (هُم) وبالقصر الادِّعَائِيِّ المستفاد من ضمير الفصل وتعريف الخبر للمبالغة في ذمهم بالفسق ، (ولِزِيَادَةِ تَقْرِيرِهِمْ فِي الذِّهْنِ آثر النظمُ الكريمُ الإِظْهَار فِي مَقَامِ الإِضْمَار فِي قَوْلِهِ: (الْمُنَافِقِينَ) لِتَكُونَ الْجُمْلَةُ مُسْتَقِلَّةً حَتَّى تكون كالمثل) [١٠٨] (كما اقتصر النظمُ الكريمُ على ذكر المنافقين و لم يذكر المنافقاتِ اكتفاء بقربِ العهد) [١٠٩] .

ثم بين سوء مصيرهم ، بعد بيان جانب من صفاتهم الذميمة فقال : (وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ) وجاء الوعدُ ماضياً لِزِيَادَةِ تَحْقِيقِهِ (وَإِمَّا لِصَوْغِ الْوَعِيدِ فِي الصِّيغَةِ الَّتِي تَنْشَأُ بِهَا الْعُقُودُ مِثْلَ (بِعْتُ وَوَهَبْتُ) إِشْعَارًا بِأَنَّهُ وَعِيدٌ لاَ يَتَخَلَّفُ مِثْلَ الْعَقْدِ وَالإِلْتِزَامِ) [١١٠] . وَأَخَّرَ ذِكْرَ الْكُفَّارِ فِي مَقَامِ الْوَعِيدِ لِلإِيذَانِ (بِأَنَّ النِّفَاقَ أخطرُ من الكفر الصريح) [١١١] .

وقد توعدهم اللهُ - تعالى- بنار جهنم واللعنِ والعذابِ المقيم ثم بين أنهم مخلدون في بؤسهم و شقائهم بِالْجُمْلَةِ الْحَالِيَّةِ(خَالِدِينَ فِيهَا) وفي الكلام طيٌ تقديره : يصلونها خالدين فِيهَا ، ثم تأتى الكنايةُ عن مُلاَزَمَةِ

---

[١٠٦] النساء : ١٤٢

[١٠٧] الشورى : ٤٠

[١٠٨] التحرير والتنوير ١٠/ ٢٥٥

[١٠٩] روح المعاني ١٠/ ١٣٣

[١١٠] التحرير والتنوير ١٠/ ٢٥٥

[١١١] التفسير المنير ، ١٠/ ٢٩٦

نَـارِ جَهَنَّمَ لهم بقولـه :(هِـيَ حَسْبُهُمْ) مبالغة فـي تعذيبهم إذ (لَمَّـا كَـانَ الْكَافِي يُلاَزِمُهُ الْمُكَفِّي كُنِّيَ بِهِ هُنَا عَن الْمُلاَزَمَةِ)[١١٢] .

ثم يعطف لونا آخر من ألوان الوعيد وهو اللعن والطرد من رحمه الله -تعالى-مشيرا إليه بصيغة الماضي (لَعَنَهُمُ اللهُ) تحقيقاً للوعد ، وأنه كائنٌ لا محالة.

وفى قوله : (وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ) تقديم للمسند (لَهُمْ) على المسند إليه وهو (عَذَابٌ مُقِيمٌ) للتّنْبيه من أوّل الأمر على أنّه خبرٌ لا نعت، لأن تأخيره قد يوهم ابتداءً أنّه نعتٌ للمسند إليه وأن الخبر لم يأتِ بَعْدُ ولذا قُدِّم ،والعَذْابُ المُقِيمُ هو الدائمُ الذي لا ينقطع ولما كانت الإقامةُ من صفاتِ العقلاء فلا يُوصَف بها العذابُ إلا على سبيلِ المجاز العقلي لعلاقة الفاعلية للإشعار بأن العذابَ لتسلطه عليهم وملازمتِه لهم كأنه حيٌ مكلفٌ بهم لا يُفْتَّرُ عَنْهُمْ ، وهو كقوله - تعالى- (فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ)[١١٣] .

وتستمرُ الآياتُ في بيان فضائح المنافقينَ فتُشَبِّهَهم بمن سَبَقهم من المنافقينَ والكفار : (كالذين مِن قبْلِكُمْ) ثم يأتي البيانُ (كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُـوَّةً وَأَكْثَـرَ أَمْـوَالاً وَأَوْلاَدًا فَاسْـتَمْتَعُوا بِخَلاَقِهِـمْ فَاسْـتَمْتَعْتُمْ بِخَلاَقِكُـمْ كَمَـا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلاَقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا) متضمناً فنونا من البلاغة وألواناً من البيان تعانقت في إظهار قبح أفعالهم وسوءِ مصيرهم : فكان الالتفات من الغيبة إلى الخطاب في قوله :(كالذين مِن قَبْلِكُمْ كَانُواْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً) لتوجيه الخطاب إليهم زيادة في تقريعهم ،والعطف بالفاء لإفادة الترتيب والتعقيب في قوله : (فاستمتعوا) لإظهار مدى انحرافهم وسرعة عصيانهم فيما رزقوا من نعم ،ثم تكرير

---

[١١٢] التحرير والتنوير ١٠/ ٢٥٦

[١١٣] الْحَاقَّة ٢١

استمتعوا، بصيغة الاستفعال وما تحمله من تكلف المتعة والمبالغة فيها ، وتأكيداً في ذمهم يشبه خوضهم الباطل واندفاعهم في طريق الغرور والهوى بحال الذين خلوا من قبلهم من الطغاة : (وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا) مجسدا ضلالهم و تخبطهم في الأباطيل بخوض الماء وغوصه على سبيل الاستعارة المكنية التبعية ، ثم أعْقَبَ ذَلِكَ بالحكم عليه :(أولئِكَ حَبِطتْ أعْمالُهُمْ فِي الدُّنْيا وَالآخِرَةِ وَأولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ) مشيراً إلَيْهِمْ لِلتَّنْبيهِ عَلَى أنَّهُمْ بسَبَبِ ذَلِكَ كَانُوا جَدِيرينَ بمَا سَيُخْبَرُ بهِ عَنْهُمْ مكررا الإِشَارَةِ إليهم لتميزهم أكمل تمييز،مصوراً خسارتهم وعدم انتفاعهم بشيء من أعمالهم بالاستعارة المكنية التبعية (حَبِطتْ أعْمالُهُمْ) حيث شبه حالهم بالماشية التي ملأت بطونها بالغذاء الفاسد حتى أصابها انتفاخ أودى بحياتها فهؤلاء المنافقون ملأوا صحائف أعمالهم بالأقوال والأفعال القبيحة التي ظنوها حسنة ، فترتب على ذلك هلاكهم وسوء مصيرهم في الدنيا والآخرة ، ثم عطف الخسران على الحبوط وهو من عطف المسبب على السبب (وَأولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ) فأفاد بتعريفِ جزأي الجملة والإتيان بضمير الفصل تأكيدَ قصر صفة الخسران عليهم ، وهو قصر ادّعائي مجازيّ بتنزيل خسارة غيرهم في جانب خسارتهم منزلة العدم . وللمرة الثالثة في نفس السورة سورة التوبة يأتي الحديث عن المال مقرونا بالبنين .

الموطن العاشر :

قال تعالى : (قُلْ أنْفِقُوا طَوْعًا أوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ (٥٣) وَمَا مَنَعَهُمْ أنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إلاَّ أنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِّ وَبِرَسُولِهِ وَلاَ يَأتُونَ الصَّلاَةَ إلاَّ وَهُمْ كُسَالَى وَلاَ يُنْفِقُونَ إلاَّ وَهُمْ كَارِهُونَ

(٥٤) فَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (٥٥) [١١٤] .

حيث تتناول هذه الآياتُ نفقاتِ المنافقين موضحةً الأسبابَ الرئيسية التي حالت دون قبولها وهى كفرُهم بالله وبرسوله، و إتيانُهم الصلاة وهم كسالى و كراهيتُهم الشديدةُ لما ينفقون وقد ذكر الطبريُ أن هذه الآية نزلة في الجدِّ بنِ قيس حين تخلفَ عن غزوةِ تبوك وقال لرسولِ اللهِّ ـ صلّى اللهُّ عليه وسلَّم ـ : قد علمت الأنصار أني إذا رأيتُ النساءَ لم أصبر حتى أفتَتَن، ولكن أعِينُكَ بمالي. [١١٥] .

واستهلالُ التهديد ب (قُلْ) يوحى بأهمية بالمقول ، وَالأَمْرُ فِي (أَنْفِقُوا) أمرٌ مجازىٌ يراد منه التَّسْوِيَةَ وَهُوَ فِي مَعْنَى الْخَبَرِ الشَّرْطِيِّ لأَنَّهُ فِي قُوَّةِ أَنْ يُقَالَ: لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنْ أَنْفَقْتُمْ طَوْعًا أَوْ أَنْفَقْتُمْ كَرْهًا، قال كثيرُ عزةَ :

أسِيئِي بنَا أَوْ أَحْسِنِي لاَ مَلُومَةً لَدَيْنَا وَلاَ مَقْلِيَّةً إِنْ تَقَلَّتِ[١١٦] .

فلم يأمرها بالإساءةِ لكنه أعلمَها أنه على عهدِه أساءتْ إليه أو أحسنتْ وجاء الفعلُ مبنياً للمفعول في قوله (لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ): لإرادة التعميم في عدم التقبل .

ولما كان التقبلُ: قبولُ الشيءِ على وجهٍ يقتضي ثواباً كالهدية ونحوها [١١٧] آثر النظمُ الكريمُ تلك المادةَ (يُتَقَبَّلَ) في إشارةٍ إلى ما كانوا يظنونه من أن أي إنفاقٍ يقدمونه يُتَقبلُ برغبةٍ من النبي ـ صلّى اللهُّ عليه وسلّم ـ

---

[١١٤] التوبة ٥٣ ـ٥٥

[١١٥] تفسير الطبري : ١٤/ ٢٨٧

[١١٦] الإيضاح في علوم البلاغة : ١٤٧

[١١٧] المفردات في غريب القرآن : قبل

وأصحابه فنفى تَقبُلَ أي نفقة منهم ، وَجُمْلَةُ (إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْماً فاسِقِينَ) فِي مَوْضِعِ الْعِلَّةِ لِنَفْي التَّقَبُّلِ،ولذا فُصِلَتْ عن سابقتها لما بينهما من كمال الانقطاع حيث اختلفتْ الجملتان خبرًا وإنشاءً، لفظًا ومعنى، فالجملةُ الأولى إنشائية والثانيةُ خبرية ، (وَإِنَّمَا اخْتِيرَ وَصْفُ (الْفَاسِقِينَ) دُونَ (الْكَافِرِينَ) لأَنَّهُمْ يُظْهِرُونَ الإِسْلاَمَ وَيُبْطِنُونَ الْكُفْرَ، فَكَانُوا كَالْمَائِلِينَ عَنِ الإِسْلاَمِ إِلَى الْكُفْرِ. وَالْمَقْصُودُ مِنْ هَذَا تَأْييسُهُمْ مِنَ الاِنْتِفَاعِ بِمَا بَذَلُوهُ مِنْ أَمْوَالِهِمْ)[١١٨] .

وقد أكد اللهُ - سبحانه وتعالى - الحكمَ بفسقهم بعدةِ مؤكداتٍ :اسمية الجملة المؤكدة ب (إن) و (كان) الدالة على استمرارهم في فسقهم وتنكير (قوم) للتقليل من شأنهم ، والاستهانة بهم .

ثم بَيَّنَ صفة فسقهم وعَلَّلَ عدمَ قبول أعمالهم فقال: (وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلاَّ) فذكرَ الأسبابَ الرئيسية التي حالتْ دون قبول نفقاتهم عن طريق القصر بالنفي والاستثناء وآثر النظمُ تحققَ كفرهم بالفعل الماضي (كَفَرُوا) مشيرا بتكرار (الباء) في قوله : (وَبِرَسُولِهِ)إلى شدة جرمهم فقد كفروا بالله وكفروا بالرسول - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم.

(وَالْكُفْرُ وَإِنْ كَانَ وَحْدَهُ كَافِيًا فِي عَدَمِ قَبُولِ نفقاتهم ، إِلاَّ أَنَّ ذِكْرَ التَّكَاسُلِ عَنِ الصَّلاَةِ وكَرَاهِيَةِ الإِنْفَاقِ يشيران إِلَى تَمَكُّنِ الْكُفْرِ مِنْ قُلُوبِهِمْ لأنّ الصلاةَ أشرفُ الأعمال البدنية ، والنفقةَ في سبيل الله أشرفُ الأعمالِ المالية ، وهما وصفان المطلوب إظهارهما في الإسلام ، ويستدل بهما على الإيمان)[١١٩] .

---

[١١٨] التحرير والتنوير ١٠/ ٢٢٦

[١١٩] تفسير البحر المحيط ٥/ ٥٥

ثم ذكَرَ السببَ الثاني لعَدَمِ قبُولِ نفقاتهم فقال : (وَلاَ يَأْتُونَ الصَّلاَةَ إِلاَّ وَهُمْ كُسَالَى وَلاَ يُنْفِقُونَ إِلاَّ وَهُمْ كَارِهُونَ) متخذاً من القصر وسيلةً لكشفِ عوراتِهم و فضح كذبهم وَخَفَايَا نُفُوسِهِمْ فحَصَرَ إتيانَهم الصلاة على صفةِ الكسلِ ، وإنفاقهم على حالةٍ نفسيةٍ واحدةٍ كراهية الإنفاق وعدم الرغبة فيه ، وقد دلّ النظمُ الكريمُ بصيغةِ المضارع المنفى :(لاَ يَأْتُونَ ،لاَ يُنْفِقُونَ) على تجددِ ذلك منهم ، كما آثر النظم أن يكون المقصورُ عليه اسماً (كُسَالَى ،كَارِهُونَ) لأنه أدل على ثبوت الوصف لهم ، واستقراره فيهم ،وأنه دأبهم الذي لا ينفك عنهم ، ثم نهى الله - تعالى - المؤمنين في شخص نبيهم - صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّم - عن التطلع إلى ما في أيدي هؤلاء المنافقين فقال : (فَلاَ تُعْجِبْكَ)

وقدم الأموال على الأولاد مع أنهم أعز منها(لعموم مساس الحاجة إليها دون الأولاد ولأنها كانت أعلق بقلوبهم ، ونفوسهم أميل إليها وقيل : لأنها أقدم في الوجود منهم) [١٢٠] .

وكما نهى عن الإعجاب ب(الأموال) نهى عن الإعجاب بـ(الأولاد) مؤكِّداً معنى النهي بتكرار (لا) إشعاراً باستقلالية النهى و المبالغة في التحذير . وللدلالة على أنهم كانوا معجبين بكثرة الأموال والأولاد وإعجابهم بأولادهم أكثر ، ثم جاء تعليل النهى بقصر إرادة الله – تعالى- في اختبارهم بالأموالِ والأولادِ على تعذيبهم بهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وعلى سوء مصيرهم في الآخرة فقال : (إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) وَفِي التَّعْبِيرِ بِالْفِعْلِ الْمُضَارِعِ دَلاَلَةٌ عَلَى تَجَدُّدِ الإِرَادَةِ وَاسْتِمْرَارِهَا، و (أبلغ في الحصر بإدخال اللام في قوله : (لِيُعَذِّبَهُمْ بهَا) [١٢١] .

---

[١٢٠] روح المعاني ١٠/ ١٥٦

[١٢١] نظم الدرر : ٨/٥٠٠

ثم جاء الحكم عليهم بالشقاء الدائم والحسرة الملازمة والعذاب المتجدد فقال : (وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ) فكنى عن الموت بزهوق النفس (قال ابن عطية : ويحتمل أن يريد وتزهق أنفسهم من شدة التعذيب الذي ينالهم)[١٢٢] ويواصل القرآن حديثه عن المنافقين محذرا للمرة الثانية من الإعجاب بأموالهم فبعد تسع وعشرين آية من نفس السورة سورة التوبة.

الموطن الحادي عشر :

يقول تعالى : (وَلاَ تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلاَ تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ وَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلاَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ) [١٢٣] فبعد أن أمر الله رسوله- صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّم - بفضح المنافقين وإذلالهم بمنعهم من الجهاد ، أمره أن لا يصلّي على من مات منهم ، محذرا للمرة الثانية من الإعجاب بأموال المنافقين وأولادهم ، ولعل سر التكرار والحكمة فيه المبالغة في التحذير من الأموال والأولاد ؛ لأنها جذابة للقلوب ، فتحتاج إلى صارف قوي، وما كان بهذه المثابة من التغرير والإغواء يجب التحذير منه مرة بعد مرة ، ويحتمل أن تكون الأولى في قوم والثانية في آخرين . وقيل : الثانية في اليهود والأولى في المنافقين [١٢٤] .

---

[١٢٢] تفسير البحر المحيط :٥/ ٥٦

[١٢٣] التوبة : ٨٤ ــ ٨٦

[١٢٤] تفسير حدائق الروح والريحان ٣٩٣/١١

وأما سر المخالفة والفرق بين بعض ألفاظ الآيتين فبيانه كالتالي :

ففي الآية الأولى (فَلَا تُعْجِبْكَ) بالفاء وقال هنا:(وَلاَ تُعْجِبْكَ) بالواو، والفرق بينهما أنه عطف الآية الأولى على قوله: (وَلاَ يُنْفِقُونَ إِلاَّ وَهُمْ كَارِهُونَ) وصفهم بكونهم كارهين للإنفاق لشدة محبتهم للأموال والأولاد فحسن العطف عليه بالفاء تعقيبا وترتيبا، وأما هذه الآية فلا تعلق لها بما قبلها فلهذا أتى بحرف الواو)[١٢٥] .

وفي الآية الأولى : (فَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ) بزيادة (لا) تأكيداً على النَّهي عن الإعجاب بكل واحد منهما على انفراد ، وهنا سقطت ، فكان نهياً عن إعجاب المجموع فدلت الآيتان بمنطوقهما ومفهومهما على النهي عن الإعجاب بالأموال والأولاد مجتمعين ومنفردين [١٢٦].

وفي الآية الأولى: « إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُّ لِيُعَذِّبَهُمْ » بحرف اللام وقال هنا : « إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُّ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ » بحرف (أَنْ) والفائدة فيه التنبيه على أن التعليل في أحكام الله محال وإنه وإن ورد فيه حرف اللام فمعناه (أَنْ) كقوله : (وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللهَّ) [١٢٧] فإن معناه: وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ بِأَنْ يَعْبُدُوا اللهَّ .

في الآية الأولى: « فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » وقال هنا:(فِي الدُّنْيَا) فجاء ذكر الحياة في الأولى على الأصل ، وحذفت هنا تنبيهاً على خسة الدنيا ،

---

[١٢٥] تفسير الخازن المسمى لباب التأويل في معاني التنزيل علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي الشهير بالخازن دار الفكر ، بيروت ، لبنان ، ١٩٧٩م تفسير الخازن : ٣/ ١٣٣

[١٢٦] تفسير البحر المحيط :٥/ ٨٤

[١٢٧] البينة: ٥

وأنها لا تستحق أن تسمى حياة ، ولا سيما حين تقدمها ذكر موت المنافقين ، فناسب أنْ لا تسمى حياة [١٢٨].

الموطن الثاني عشر :

(وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا (٦١) قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً (٦٢) قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا (٦٣) وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلاَدِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا (٦٤) [١٢٩] .

يأتي حديث القران عن الأَمْوَالِ وَالأَوْلاَدِ في هذه الآيات في سياق تذكير الله - تعالى- بعَدَاوَةِ إِبْلِيسَ لآدَمَ وَذُرِّيَّتِهِ .

قوله :(وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ)

مَعْطُوفٌ عَلَى قوله : (وَإِذْ قُلْنا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أحاط بالنَّاس)[١٣٠]و " إذ " ظرف لما مضى من الزمان ، وهو متعلق بمحذوف تقديره اذكر . والمراد بذكر الوقت تذكر ما حدث فيه من أحداث ،وذلك (للمبالغة في إيجاب ذكرها لما أن إيجاب ذكر الوقت إيجاب لذكر ما وقع فيه بالطريق البرهاني ولأن الوقت مشتمل على ما وقع فيه تفصيلا فإذا استحضر كان ما وقع فيه حاضرا بتفاصيل كأنه مشاهد عيانا) [١٣١] .

---

[١٢٨] تفسير البحر المحيط : ٥/ ٨٤

[١٢٩] الإسراء ٦١ ، ٦٥

[١٣٠] الإسراء ٦٠

[١٣١] تفسير أبي السعود : ٣/ ٢٢

وفى إسْنَادِ الْقَوْلِ إلَى اللهِ بضَمِيرِ الْعَظَمَةِ (وَإذْ قُلْنا) مالا يخفى من التفخيم والتعظيم وذلك (لأنَّ الْقَوْلَ هُنَا تَضَمَّنَ أمْرًا بِفِعْلٍ فِيهِ غَضَاضَةٌ عَلَى الْمَأمُورينَ فَنَاسَبَهُ إظْهَارُ عَظَمَةِ الآمِرِ [١٣٢] .

ثم بين - تعالى- مدى امتثال الملائكة للأمر بالسجود بقوله :(فَسَجَدُوا) بفاء التعقيب ، لإفادة أن سجودهم كان في أعقاب أمر الله - تعالى - لهم مباشرة ، بدون تأخير أو تسويف .

(إلاَّ إبْلِيسَ) نصب على الاستثناء المتصل ، لأنه كان من الملائكة على قول الجمهور ورجحه الطبري وقيل : كان من الجن الذين كانوا في الأرض وقاتلتهم الملائكة فسبوه صغيرا وتعبد مع الملائكة وخوطب ، والاستثناء على هذا منقطع [١٣٣].

استثناه الله - تعالى- فَلَمْ يَمْتَثِلْ للأمر معربا بالاستفهام المجازى : (أأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا) عن مدى إنكاره وتعجبه و هي جُمْلَةٌ مُسْتَأنَفَةٌ اسْتِئْنَافًا بَيَانِيًّا، فكأن سائلا سأل : فماذا كان موقف إبليس من هذا الأمر؟ فكان الجواب أن إبليس فسق عن أمر ربه وتعجب من السجود لمخلوق من طين، ولا يخفى أن (مقصود إبليس من هذا الاستفهام المبالغة في عدم الامتثال لأنه أقوى من النفي الصريح .

ثم يتابع إبليس جرأته مخاطبا الذات العلية مبينا مدى حقده وحسده بل و متوعدا ب (أرَأيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أخَّرْتَنِ إلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إلاَّ قَلِيلاً) وقد تضمنت هذه الآية فنونا من البلاغةِ حيث افتتح اللعينُ كلامَه ب(أرَأيْتَكَ) وهو (تركيب يفتتح به الكلام الذي يراد تحقيقه والاهتمام به حيث جمع مع تاء الخطاب الكاف تأكيداً للمخاطبة ،كما وظف الإشارة هنا للتحقير من شأن آدم- عليه السلام- في زعمه ،

---

[١٣٢] ينظر التحرير والتنوير ١/ ٤٢١

[١٣٣] ينظر تفسير القرطبي ١/ ٢٩٤

كما اختصر الكلام لكونه معلوماً إذ الأصل : أرَأيْتَكَ هَذا الَّذِي كَرَّمْتَه عَلَيَّ لِمَ كَرَّمْتَه وأنا خَيْرٌ منه ؟ كما أشار بالمجاز المرسل إلى أهمية الرؤية فضلا عما ينطوي عليه المجاز من إيجاز بقوله : (أرَأيْتَكَ) و المعنى أخبرني عن هذا الذي كرمته علي فلما كانت رؤية الشيء سببا لمعرفته وللإخبار عنه ، أطلق السبب وأريد المسبب لعلاقته السببية .

وَجُمْلَة (لَئِنْ أخَّرْتَنِ إلى يَوْمِ الْقِيامَةِ) مُسْتَأنَفَة اسْتِئْنَافًا ابْتِدَائِيًّا، واللاّم موطّئة لقسم محذوف ، والتقدير : والله لئِن أخَّرْتَن ،وجيء في حكاية قوله (لَئِنْ أخَّرْتَن) بحرف (إنْ) الشرطية التي يَغلب وقوعها في الشرط المشكوك وقوعه لأنّه جعل تأخيره إلى يوم القيامة أمراً ضعيفَ الاحتمال . وجوابُ القسمِ (لأحْتَنِكَنَّ) وهو دليل على جواب الشرط ، وجاء مُؤَكَّداً بنون التوكيد الثقيلة إشارة إلى مدى العزم والإصرار .

وَالاِحْتِنَاكُ: وَضْعُ الرَّاكِبِ اللِّجَامَ فِي حَنَكِ الْفَرَسِ لِيَرْكَبَهُ وَيُسَيِّرَهُ، فَهُوَ هُنَا تَمْثِيلٌ لِجَلْبِ ذُرِّيَّةِ آدَمَ إِلَى مُرَادِهِ مِنَ الإِفْسَادِ وَالإِغْوَاءِ بِتَسْيِير الْفَرَسِ عَلَى حُبِّ مَا يُرِيد رَاكِبه) [١٣٤] .

ويأتي الجواب من الله - تعالى- عن سؤال إبليس التأخير إلى يوم القيامة محملا بمعاني الطرد والإبعاد و التهديد والاستدراج (اذْهَبْ) فهو أمرٌ ليس على حقيقته من نقيض المجيء ولكن المعنى اذهب لشأنك الذي اخترته) [١٣٥] .

قوله : (فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا)بيان لما توعد الله به إبليس وأتباعه ، و الفاء هنا للإفصاح عن شرط مقدر مطوي ، مؤداه إن ذهبت وأغريت ، وحاولت السيطرة على نفوسهم فَمَنْ

---

[١٣٤] التحرير والتنوير : ١٥/ ١٥١

[١٣٥] تفسير البحر المحيط : ٦/ ٥٥

تَبعَكَ إلى ما تدعوه إليه فإنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا ،وأعيد (جَزَاءً) لتأكيد الجزاء والاهتمام به كما ووصف بالوفرة لبيان كماله وسعته وشموله لكل المذنبين .

قوله : (فَمَنْ تَبعَكَ مِنْهُمْ فإنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ) أراد جزاؤهم وجزاؤك فغلب المخاطب - وهو إبليس - على الغائب لأنه الأصل في المعاصي وغيره تبع له وجوز في الكشاف أن يكون الخطاب لتابعيه على طريقة الالتفات .حيث التفت من الغائب في قوله (فَمَنْ تَبعَكَ مِنْهُمْ) إلى المخاطب وكان الأصل أن يقال : جزاؤهم ، بضمير الغيبة ؛ ليرجع إلى (فَمَنْ تَبعَكَ مِنْهُمْ) لكنه غَلَّبَ المخاطب ؛ ليدخل إبليس معهم)[١٣٦] .

ثم أمره - تعالى - على سبيل التهديد أن يفعل كل ما يقدر عليه من إضلالهم فقال:(وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ) وكما نرى فالجملة الكريمة تصوير بديع ، و تجسيم دقيق، لعداوة إبليس لآدم وذريته، وأنه معهم في معركة يوظف فيها كل وسائل الْفِتْنَةِ ، والغواية والإضلال ،فهو يستفزهم بالصوت العالي [١٣٧]الذي اختَلَف فيه أهلُ التأويل فقال بعضُهم: عنى به: صوتَ الغناء واللعب وآخرون يرونه صوت كلّ داع دعا إلى معصية الله، وأولى الأقوال في ذلك بالصحة أنه - تعالى - لم يخصص من ذلك صوتا دون صوت، فكلُ صوتٍ دعاء إليه وإلى عمله وطاعته، وخلافا للدعاء إلى طاعة الله، فهو داخل في معنى صوته) [١٣٨]

---

[١٣٦] ينظر الكشاف ٢/ ٦٣٣

[١٣٧] يقال : (أفزّه : أفزعه وأزعجه وطيَّر فؤادَه وكذلك أفْزَزْتُه واسْتَفزَّه من الشيء أخرجه واسْتَفزَّه خَتَلَه حتى ألقاه في مَهْلكة واسْتَفزَّه الخوفُ أي اسْتَخَفَّه لسان العرب (فزز) ٥/ ٣٩١

[١٣٨] ينظر تفسير الطبري : ١٧/ ٤٩١

ولعل الصَّوْتَ هنا مستعار لِإلْقاءِ الْوَسْوَسَةِ فِي نُفُوسِ النَّاسِ ،(وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ) .

الجَلْبةُ : الصوتُ المزعج الشديد ، (وهذه الأصوات مقصودة لإرهاب الخصم وإزعاجه ، وأيضاً لأن هذه الصيحات تأخذ شيئاً من انتباه الخصم ، فيضعف تدبيره لحركة مضادة ، فيسهل عليك التغلّب عليه) [١٣٩] .

والخيل : الفرسان الراكبون على خيل ، والرجل : جمع راجل وهو الذي يمشي على رجليه (والظاهر أن إبليس له خيل ورجالة من الجن جنسه قاله قتادة ، والخيل تطلق على الأفراس حقيقة وعلى أصحابها مجازاً وهم الفرسان)[١٤٠] .

(قال مجاهد كل راكب في معصية الله فهو من خيل إبليس وكل ماش في معصية الله فهو من رجل إبليس)[١٤١] .

والكلام كما ذكر صاحب الكشاف وارد على سبيل الاستعارة التمثيلية: حيث شبهت حالة الشَّيْطان في تسلطه على من يغويه بصوته ،و بخيله ،ورجله ، بمغوار أوقع على قوم ، فصوت بهم صوتًا يستفزهم من أماكنهم ، ويقلقهم عن مراكزهم ، وأجلب عليهم بجنده من خيالة ورجالة حتى استأصلهم)[١٤٢] .

(وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلاَدِ) أي : واجعل لنفسك شِرْكة في أموالهم بأن يكسبوها من الحرام، وينفقوها في الحرام وشِرْكة في الأولاد بتزيين الزنا والمعاصي، والفسق و الفجور والفساد ، (وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ

---

[١٣٩] تفسير الشعراوي ١٤: ٨٦٦٧

[١٤٠] تفسير البحر المحيط : ٦ / ٥٥

[١٤١] تفسير الطبري : ١٧/ ٤٩٢

[١٤٢] الكشاف ٢/ ٦٣٣

الشَّيْطانُ إلاَّ غُرُورًا) والأمر (اذْهَبْ وَأَجْلِبْ وَاسْتَفْزِزْ وَ شَارِكْهُمْ وَعِدْهُمْ) للتهديد والوعيد ، وقد جاءت هذه الجمل موصولة لما بينها من التوسُّط بين الكمالين كمال الاتّصال وكمال الانقطاع، فاقتضى التوسطُ بين الكمالين مع التلاؤم وكونها جملاً إنشائية لفظاً ومعنى عَطْفها بالواو العاطفة.

وَقد حُذِفَ مَفْعُولُ (وَعِدْهُمْ) لِلتَّعْمِيمِ فِي الْمَوْعُودِ بِهِ ، ثم جاءت الحقيقة الثابتة مؤكدةً مصاغةً في أسلوب من أساليب القصر وهو النفي والاستثناء (وَما يَعِدُهُمُ الشَّيْطانُ إلاَّ غُرُوراً) حيث قصر وعد الشيطان على صفة الغرور ، وقد آثر النظمُ الكريمُ الالتفات من الخطاب إلى الغيبة ، إهمالاً لشأن الشيطان ،و تهوينا لأمره ، واستصغارا لأمر الغرور الذي يعدهم به .

المقـــام الثاني

مقام الإرشاد والتوجيه

الموطن الأول :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَخُونُوا اللهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلاَدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ)[١٤٣] .

قولـه تعالى :(يَـا أَيُّهَـا الَّـذِينَ آمَنُـوا لاَ تَخُونُـوا اللهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُـوا أَمَانَاتِكُمْ) نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَـةُ فِي أَبـي لُبَابَـةَ حِينَ بَعَثَـهُ الرَّسُولُ ـ صلى الله عليـه وسلم ـ إِلَـى بَنِـي قُرَيْظَـةَ لِيَنْزِلُـوا عَلَـى حُكْـمِ رَسُـولِ اللهِ ، فَاسْتَشَـارَ اليَهُودُ أَبَا لُبَابَةَ ـ وَكَانَ حَلِيفاً لَهُمْ ـ فَأَشَارَ عَلَيْهِمْ بِالنُّزُولِ عَلَى حُكْمِ رَسُولِ اللهِ ـ صلى الله عليه وسلم ـ وَلَكِنَّهُ أَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى حَلْقِهِ ، أَيْ أَنَّه الذَّبْحَ . ثُمَّ شَعَرَ أَنَّهُ خَانَ اللهَ وَرَسُولَهُ ، فَرَبَطَ نَفْسَهُ فِي سَارِيَةِ المَسْجِدِ تِسْعَةِ أَيَّامٍ لاَ يَـذُوقُ طَعَامـاً حَتَّـى تَـابَ اللهُ عَلَيْـهِ ، فَأَطْلَقَـهُ رَسُـولُ اللهِ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْـهِ وَسَلَّم ـ (وَقِيلَ أَيْضاً إِنَّهَا نَزَلَتْ فِي حَاطِبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ ، الذِي أَرْسَلَ رِسَـالَةً إِلَـى قُـرَيْشٍ مَـعَ امْـرَأَةٍ يُعْلِمُهَـا فِيهَـا بِـأَنَّ الرَّسُـولَ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْـهِ وَسَلَّم ـ تَجَهَّزَ لِغَزْوِهِمْ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ) [١٤٤] .

وَمَهْمَا يَكُنْ سَبَبُ النُّزُولِ فَالآيَةُ عَامَّـةٌ تَشْتَمِلُ كُلَّ خِيَانَـةٍ ، وَلِـذَلِكَ فَسَّرَ ابْنُ عَبَّاسٍ خِيَانَةَ اللهِ بِتَرْكِ فَرَائِضِـهِ وَارْتِكَـابِ مَعْصِيَتِهِ ، وَالأَمَانَـةَ بِكُـلِّ مَـا ائْتَمَنَ اللهُ عَلَيْهِ الْعِبَادَ بِألاَّ يُنْقِصَهَا [١٤٥].

---

١٤٣ الأنفال : ٢٧ ــ ٣٠

١٤٤ ينظر تفسير ابن كثير : ٢/ ٣٠٢

١٤٥ تفسير المنار: ٩/ ٦٤٢

وصُدّرت الآية الكريمة بهذا النداء الرباني المحبب إلى القلوب للتنبيه وإيقاظ المشاعر والأحاسيس ولتشويق أهل الإيمان للامتثال لما يرد بعده وقد كثر في القران الكريم النداء على هذه الطريقة لاستقلاله بأوجه من التأكيد وأسباب من المبالغة تتمثل في إيثار حرف النداء (يا)الموضوع لنداء البعيد للإيذان بان الخطاب الذي يتلوه معنى به جدا و(أي) وهو وصلة إلى نداء ما فيه الألف اللام وهو اسم مبهم يفتقر إلى ما يزيل إبهامه فلا بدّ وأن يردفه اسم جنس أو ما يجري مجراه يتصف به حتى يحصل المقصود بالنداء وأما كلمة التنبيه (ها) المقحمة بين الصفة وموصوفها فهي تقوى حرف النداء وتعاضده بتأكيد معناه من التنبيه والإيقاظ للمدعو ، كما أنها تقع عوضاً عما يستحقه (أي) من الإضافة وفي هذا التدرج من الإبهام إلى التوضيح ضرب من التأكيد والتشديد يتطلبه مقام الإرشاد والتوجيه حيث (إنها أمور عظام وخطوب جسام ومعان عليهم أن يتيقظوا لها ويميلوا بقلوبهم وبصائرهم إليها وهم عنها غافلون فاقتضت الحال أن ينادوا بالآكد الأبلغ)[١٤٦] .

وبعد التشويق بهذا النداء ولفت الانتباه وتهيئة النفوس وإيقاظ المشاعر يأتي النهى عن الخيانة .

وَالْخِيَانَةُ ضِدَّ الْوَفَاءِ فَأَصْلُ الْخَوْنِ النَّقْصُ، كَمَا أَنَّ أَصْلَ الْوَفَاءِ التَّمَامُ، ثُمَّ اسْتُعْمِلَ الْخَوْنُ فِيما هو ضِدِّ الأمانةِ و الْوَفَاءِ على سبيل الاستعارةِ التصريحيةِ التبعيةِ .

فبدأ بالنهى عن خيانة الله – تعالى - وثنى بخيانة رسوله - صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّم - وخيانة الله تكون بتعطيل فرائضه كما أن خيانة رسوله - صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّم – تكون بهجر سنته وعدم إتباع هديه وأوثر لفظ

---

[١٤٦] الكشاف : ١/ ١٢٢

الجلالة (الله) دون غيره من الأسماء استحضارا لعظمة اللهّ والخوف منه ؛ فهو الاسم الأعظم الذي حوي الأسماء كلها ، وذلك أدعى إلى تلقي الوعيد باهتمام وخشية ،وعطف الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ مذكورا بوصف الرسالة للتهويل من خيانته وأن خيانته خيانة لله تعالى .

وَقَوْلُهُ : (وَتَخُونُوا) عُطِفَ عَلَى قَوْلِهِ: (لاَ تَخُونُوا) فَهُوَ فِي حَيِّزِ النَّهْيِ، وَأُعِيدَ فِعْلُ (تَخُونُوا) لِلتَّنْبِيهِ عَلَى نَوْعٍ آخَرَ مِنَ الْخِيَانَةِ وهى خيانة الأمانات والأمانة كل حق مادي أو معنوي يجب أداؤه إلى أهله وقوله : (أماناتِكم) فيه إيجازٌ بحَذْف المضاف والتقدير : أصحابَ أماناتكم وَإِنَّمَا أُضِيفَتِ الأَمَانَاتُ إِلَى الْمُخَاطَبِينَ مُبَالَغَةً فِي تَفْظِيعِ شأن الْخِيَانَةِ ، وزيادة في التشنيع جاءت الجُمْلَةُ الحالية (وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ) لأَنَّ النَّهْيَ عَنِ الْقَبِيحِ فِي حَالِ مَعْرِفَةِ الْمَنْهِيِّ أَنَّهُ قَبِيحٌ يَكُونُ أَشَدَّ، وَأَشْنَعَ ويمكن جعل فِعْلِ (تَعْلَمُونَ) مُنَزَّلاً مَنْزِلَةَ اللاَّزِمِ، فَلاَ يُقَدَّرُ لَهُ مَفْعُولٌ، فَيَكُونُ مَعْنَاهُ وأنتم من أهل العلم والتمييز وهذا أدْعى للرهْبة وتشديد العقاب .

ثم انتقل النظم الكريم للحديث عن فتنة الأموال والأولاد بادئا التحذير بفِعْلِ (اعْلَمُوا) للاهْتِمَام بما يراد العلم به ، وَجِيءَ فِي الإِخْبَارِ عَنْ كَوْنِ الأَمْوَالِ وَالأَوْلاَدِ فِتْنَةً بطَرِيقِ الْقَصْرِ الادعائي لِقَصْدِ الْمُبَالِغَةِ فِي إِثْبَاتِ أَنَّهُمْ فِتْنَةٌ ،وإنما جعل الأموال والأولاد فتنةً على سبيل المجاز المرسل لعلاقة السببية ، لأنهم سببٌ للوقوع في الفتنة ،وَعَطْفُ الأَوْلاَدِ عَلَى الأَمْوَالِ لِاسْتِيفَاءِ أَقْوَى دَوَاعِي الْخِيَانَةِ، فَإِنَّ غَرَضَ جُمْهُورِ النَّاسِ فِي جَمْعِ الأَمْوَالِ أَنْ يَتْرُكُوهَا لأَبْنَائِهِمْ مِنْ بَعْدِهِمْ)[١٤٧] .

---

[١٤٧] التحرير والتنوير ٩/ ٣٢٥

وقدم الأموال على الأولاد لأن ميل النفس إلى المال أشد ففتنته أعظم وقيل قدم الأموال من باب تقديم السبب لأن المال سبب للتنعيم بالولد وفقده سبب لشقائه)[١٤٨] .

ثم جاء ختام التحذير بتذييل قصد به ترغيب المؤمنين في طاعة الله – تعالى - وهو قوله (وَأَنَّ اللهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ) .

الموطن الثاني :

(وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (٧٠) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ (٧١) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (٧٣) قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٧٤) قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٧٧) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١) وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (٨٢) رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (٨٣) وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ (٨٤) وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ (٨٥) وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ (٨٦) وَلاَ تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ (٨٧) يَوْمَ لاَ يَنْفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ (٨٨) إِلاَّ مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩) [١٤٩] .

أما حديثُ القرآن عن المال والبنين في سورةِ الشعراء فقد ورد عقب مناقشة هادئة أدارها خليل الله إبراهيم - عليه السلام – مع قومه حول عقيدتهم الفاسدة حيث جادلهم منكرا عليهم عبادة الأصنام ،مبينا لهم

---

[١٤٨] البرهان في علوم القرآن، الزركشي دار المعرفة ، بيروت ، محمد أبو الفضل إبراهيم:٣/ ٢٤٨

[١٤٩] الشعراء : ٦٩- ٨٩

صفات الرّب المستحق للعبادة ضارعا إليه - تعالى- أن يمن عليه بالعلم والعمل ، وأن يحشره مع الصالحين ، وأن يجعل له أثرا طيبا بعد وفاته ، وأن يجعله من الوارثين لجنة النعيم ، وأن يستره بستره الجميل يوم القيامة ، يَوْمَ لاَ يَنْفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ .

وقد سجل القرآن الكريم هذا الحوار المثمر طالبا من الرسول - صلّى اللّهُ عليه وسلم – أن يتلوه على قومه ،و لغلبة الأمية عليهم فقد آثر النظمُ (التلاوة)[١٥٠] لِحَسِّهِمْ على التدبر فيما جرى للظالمين من قبلهم كما عبر عن هذا الخبر بالنبأ لإفادة أنه خبر ذو شأن وأهمية .

وقد استهل إبراهيم - عليه السلام – حواره معهم بسؤال أبيه وقومه عن معبودهم سؤالاً مجازيا إذ كان - عليه السلام – يعلم أن قومه عبدة أصنام ولكنه سألهم للإلزام والتبكيت ،وقد أبان جوابُهم عما هم عليه من عناد وإصرار ، فعمدوا إلى تكرير الفعل الواقع في السؤال لتأكيد عبادتهم لها ، وبيان مدى إدراكهم ووعيهم للفعل نفسه ، كما عدلوا عن تعريف الأصنام وهم يعلمون أن إبراهيم يعرفها ويعلم أنهم يعبدونها فجاءت منونة ومنكرة في إشارة منهم لتعظيمها ، (وإنما قال في سورة الصافات : (مَاذَا تَعْبُدُونَ) [١٥١] بزيادة (ذا) لأنه أراد هناك مزيد التوبيخ ولذلك بني الكلام على الزيادة ثم أردفه بقوله (أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللّهِ تُرِيدُونَ) [١٥٢] وحين صرح هنالك بالتوبيخ لم يجيبوه وههنا ظنوا أنه يريد الاستفهام

---

[١٥٠] التلاوة : هى القراءة على سبيل التتابع يقال تَلوتُ الشيءَ أتلوه تَلْواً، إذا اتّبعته جمهرة اللغة، ابن دريد دار العلم للملايين، بيروت ،١٩٨٧م ، الطبعة: الأولى، تحقيق: رمزي منير بعلبكي : تلا

[١٥١] الصافات : ٨٥

[١٥٢] الصافات : ٨٦

حقيقة فأجابوه ولكنهم بسطوا الكلام بسطاً ولم يقتصروا على (أصْنَامًا) بل عَقَّبُوه بقولهم (فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ) إظهاراً للابتهاج والافتخار) [١٥٣] .

ثم يتابع الخليل إبراهيم - عليه السلام – محاجاة قومه راجيا إقناعهم آملا في إعمال عقولهم طامعا في إيمانهم فيلفت انتباههم بالاستفهام عن حال هذه الأصنام : (هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ) ولكنه العناد والاستكبار والتقليد الأعمى للآباء والسابقين :(قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ) أي يفعلون فعلاً كذلك الفعل .فقد أرادوا تشبيه فعل الآباء بفعلهم ، وقدم الجار والمجرور (كَذَلِكَ) على (يَفْعَلُونَ) للاهتمام بالمشار إليه وهو مطابقة فعلهم لفعل آبائهم ، ويأتي رد إبراهيم - عليه السلام – : (قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ) لافتاً انتباههم إلى فساد معتقدهم ، و قِلَّةِ اكْتِرَاثِهِ بأَصْنَامِهم حيث عَطَفَ (آبَاؤُكُمُ)عَلَى (أَنْتُمْ) و(وصفهم بالأَقْدَمِيَّةِ في إشارة منه إلى أن (التقدّم والأوّلية لا يكون برهانا على الصحة ، والباطل لا ينقلب حقا بالقدم ، وما عبادة من عبد هذه الأصنام إلا عبادة أعداء له) [١٥٤] .

وليكون كلامه - عليه السلام –أدعى إلى القبول، وأبعث على الاستماع سلك طريق التعريض حين خاطبهم فقال :(فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي) لعل ذلك يقودهم إلى التأمل والإدراك بأنهم أعداء لهم (فقد يبلغ التعريض

---

[١٥٣] غرائب القرآن ورغائب الفرقان ، نظام الدين الحسن بن محمد النيسابوري تحقيق : الشيخ زكريا عميران دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ١٩٩٦م الأولى : ٥ / ٢٧٣

[١٥٤] تفسير الكشاف : ٣/ ٣٢٣

للمنصوح ما لا يبلغه التصريح، لأنه يتأمّل فيه، فربما قادة التأمّل إلى التقبل)[١٥٥] .

وفى التَّعْبير عَنِ الأصْنَامِ بضَمِير جَمْعِ الْعُقَلاَءِ فِي قوْلِهِ: (فَإِنَّهُمْ) دُونَ (فَإِنَّهَا) (جَرْيٌ عَلَى غَالِبِ الْعِبَارَاتِ الْجَارِيَةِ بَيْنَهُمْ عَنِ الأصْنَامِ لأَنَّهُمْ يَعْتَقِدُونَهَا مُدْرِكَةً) [١٥٦] .

كما جاء الوصف بالمصدر للمبالغة في عداوتها، والأصنام ـ كما هو معلوم ـ لا إدراك لها فلا توصف بالعداوة، ولذلك فقوله:(فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي) من قبيل التشبيه البليغ أي هم كالعدوّ لي في بغضهم وكراهيتهم ، ثم جاء الاستثناء المنقطع:(إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ) أي : لكن رب العالمين ليس كذلك ، بل هو حبيب لي ، وأجاز الزَّجَّاج أن يكون متصلاً ، على أن الضمير لكل معبود ، وكان من آبائهم من عَبَد الله ـ تعالى ـ ، وهم أيضاً كانوا يعبدون الله مع أصنامهم)[١٥٧] .

ثم أخذ ـ عليه السلام – في بيان صفات رب العالمين مدللا على أحقيته ـ تعالى ـ للعبادة والخضوع ، مُعَرِّضَاً بأصنامِهم التي لا تملك من أمرها شيئا فقال : (الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ) وقد آثر النظم الكريم تكرير اسم الموصول إيذاناً بأهمية ما في حيز الصلة من نعوت ، وأن كل نعت جدير بأن يجعل مستقلاً بدلالته ،كما جاءت هذه النعوت متناسقة ومرتبة ترتيبا منطقيا : فقدم الخلق لكونه أول نعمة و أجلها ، ثم ثنى بنعمة الهداية لأنها أولى

---

[١٥٥] الكشاف : ٣/ ٣٢٤ بتصرف

[١٥٦] التحرير والتنوير ١٩/ ١٤٠

[١٥٧] البحر المديد ٥/ ٢٥٨

النعم بالتقديم بعد نعمة الإيجاد ، ثم ثلّث بالإطعام والاسقاء لأن بهما قوامَ الإنسان وبقاءَه إلى الأجل المكتوب ، ثم ذكر المرض وأسنده إلى نفسه تأدبا مع الله - تعالى - ثم أعقب ذكر المرض بذكر الشفاء مسندا ذلك إلى الله - تعالى –اعترافا منه بفضله العظيم ، ثم ذكر الإماتة و أعقبها بنعمة الإحياء ليكتمل المدح بالقدرة المطلقة على كل شيء من الإيجاد والإعدام ، كما آثر النظمُ تَقْدِيمَ الْمُسْنَدِ إلَيْهِ عَلَى الْخَبَرِ الْفِعْلِيِّ فِي قوْلِهِ:(فَهُوَ يَهْدِين) وقوْلِهِ: (هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِين) وَقوْلِهِ: (فَهُوَ يَشْفِين) لإفادة اختصاصه – تعالى- بتلك النعم دُونَ غَيْرِهِ ردا على زعمهم ، وإبطالا لاعتقادهم في تصرف معبوداتهم ، قصرا إضافيا وَهُوَ من قصْرُ القَلْب و لَمْ يَأتِ بمَا يَقْتَضِي الْحَصْرَ في قوْلِهُ: (وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِين) لعدم الحاجة إليه إذ لا ينازع أحد في أن الله – تعالى- هو المنفرد بالإيجاد والإعدام ،كما أنهم لم يَدَّعُوا ذلك لأصنامهم .

ولأن الشفاء يعقب المرض جاء عطفه بالفاء بينما الإحياء يكون بعد الموت بزمان فعُطِف بثم التي هي للتراخي ، وتأدبا مع الله - تعالى – في طلب المغفرة قال: (أَطْمَعُ) في إشارة منه - عليه السلام – إلى أن ذلك فضل من اللهّ وأنه لا يجب عليه لأحد شيئا ، وزيادة في الرجاء والطمع استعار اسم الخطيئة لما صدر عنه من عمل هو خلاف الأولى استعظاما له ، كما علّق مغفرة الخطيئة بيوم الدين ؛ لأن أثرها يظهر في هذا اليوم العظيم ، و هذه الآيات قد اشتملت على صحة التقسيم حيث استوعبت أقسام النعم الدنيوية والأخروية من الخلق والهداية والإطعام والاسقاء والمرض والشفاء والموت والحياة والإيمان بالبعث وغفران الذنوب ، كما لا يخفى أن حذف يَاءَاتُ الْمُتَكَلِّمِ مِنْ يَهْدِين، ويَسْقِين، ويَشْفِين، ويُحْيِين لِأَجْلِ التَّخْفِيفِ ، و مراعاة للنسق اللفظي ، وفواصل الآيات .

وبعد أن أثنى إبراهيم - عليه السلام - على ربه هذا الثناء الجميل ، أتبع ذلك بتلك الدعوات الخاشعات فاستوهب الحكم ، ثم طلب الإلحاق بالصالحين ، فقال :(رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَأَلْحِقْنِي بالصَّالِحِينَ) ثم طلب الذكر الحسن والثناء الجميل متخذا من المجاز المرسل بعلاقته السببية سبيلا إلى ذلك فقال :(وَاجْعَلْ لِي لِسانَ صِدْقٍ فِي الأَخِرِينَ) ثم أردف ذلك بطلب السعادة في الآخرة فقال (وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ) أي واجعلني من المستحقين لجنة النعيم المتمتعين بها كما يستحق الوارث مال مورثه ويتمتع به ، فشبه الاستحقاق بالإرث ثم استعار الإرث للاستحقاق وذلك (للمبالغة فيه ؛(لأن الوراثة أقوى سبب يقع في ملك الشيء ولا يتعقبه رد ولا فسخ ولا إقالة ولا نقض)[١٥٨] .

وختم إبراهيم- عليه السلام – دعاءه بالستر التام والسلامة والنجاة يوم الشدائد يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلاَّ مَنْ أَتَى اللهَّ بقَلْبٍ سَلِيمٍ ،(وقدم المال للمبادرة بنفي المنفعة عما هو أعلق بالقلوب و أميل للنفوس و أولَ ما يفزع إليه عند الخطوب ، وخص الابن بالذكر ؛لأنه أولى القرابة بالدفع والنفع ، فإذا لم ينفع فغيره من القرابة أولى)[١٥٩] .

والقَلْب السَلِيم كما ذكر المفسرون هو القلب الخالص من الشك والشرك ، وخصه بالذكر لأهميته إذ به قوام البدن ، فإذا سلم سلمت الجوارح، وإذا فسد فسدت الجوارح .

أما الحديث عن المال والبنين في سورة الحديد فقد جاء في ثنايا الوعظ والتحذير من أمر الدنيا ، والتعريف بحقيقة الآخرة ورفعة مكانتها .

---

[١٥٨] تفسير روح البيان : ٦/ ٨٦

[١٥٩] تفسير حدائق الروح ٢٠ / ٢٤٩

الموطن الثالث :

(اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلاَدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُور (٢٠)[١٦٠] .

ولِمَا لهذا الأمر من أهمية بالغة فقد افتُتحت الجملة بكلمة : (اعْلَمُوا) تنبيها للمخاطبين على التأمل فيما يراد العلم به وهو قصر الحياة الدنيا و ما يعيشه الناس فيها على (اللَّعِب وَاللَّهْو والزِينَة وَالتَفَاخُر وَالتَكَاثُر) قصر قلب قصْراً ادّعائيًّا أو مجازيًّا للمبالغة وعدم الاعتداد بغير الأمور المذكورة ، وآثر النظم (أَنَّما)[١٦١] للإشارة إلى أن قصر الحياة الدنيا على ما ذكر أمر واضح معلوم لا يجوز لذي عقل أن ينكره ، هذا فضلا عما توحي به (أَنَّما) من التعريض بهؤلاء المخاطبين وغفلتهم وهو أحسن مواقعها ، وقد جاءت تلك الأمور منكرة لإفادة الشيوع والكثرة، وأنها ليست من جنس واحد بل من أجناس كثيرة متنوعة ، كما قُدِّمَ اللعبُ على اللهو في هذه السورة لِتَقَدُّمِه فِي الْوُجُودِ ، كما جيء بصيغة التفاعل : (تَفَاخُرٌ وَتَكَاثُرٌ) لِلْمُبَالَغَةِ فِي إظهار ما يتفاخرون به ، وما يتكاثرون فيه ، حتى كأن الأمر صار منافسة الكلُ فيها حريص على المغالبة والفوز ، ولذا أتى بـ (الأَمْوَالِ وَالأَوْلاَدِ) جمعاً لتناسب التَفَاخُر والتَكَاثُر ،ثم جاء

---

[١٦٠] **الحديد : ٢٠**

[١٦١] **(أَنَّما) بفَتْح الْهَمْزَةِ تُقيِّدُ القصرَ، مِثْلَ (إِنَّمَا) الْمَكْسُورَةِ الْهَمْزَةِ وقد ذكر البلاغيون أن دلالة (إنما) على القصر دلالة وضعية وأنها تأتى للأمر الذي لا يجهله المخاطب ولا ينكره حتى إن إنكاره يزول بأدنى تنبيه لعدم إصراره عليه أو للأمر الذي ينزل هذه المنزلة ينظر مختصر المعاني سعد الدين التفتازاني ،دار الفكر الأولى ١٤١١هـ : ١١٦**

وصفُ الدنيا ، وتقريرُ حالها ، و زجرُ الناس عن الركون إليها بإلحاقها بالزرع الذي أنبته الغيث فاستوي واكتمل ، ثم ما لبث أن صار حطاما مفتتا تذروه الرياح ، وَهَذَا التَّمْثِيلُ مع قلة عدد ألفاظه قد أجمَلَ حقيقة الدنيا وأبلغ في تقرير اضمحلال أمرها ، لأن للأمثال في تقرير الأشياء وتصويرها ما ليس لغيرها ، والكاف في قوله : (كَمَثَلِ) كما هو معلوم للتشبيه و (مثل) هنا ليست تكرارا لأداة التشبيه كما يتوهم ، وإنما هي لفظة تعمل على نقل الصورة من عالم الذهن والخيال إلى عالم الحس والواقع ، فأصل الكلمة يعنى المثول والحضور والانتقال من مكان إلى مكان آخر ، ومن ثم يكون قوله (كَمَثَلِ)بمعنى كصورة ، وإدخال كاف التشبيه على كلمة (مثل) له وظيفة بيانية فهي تذكر إذا كان المراد تقديم المشبه به في هيئة مركبة ، فإذا كان القصد إلى المشبه به مفردا لم يكن لذكرها محل) [١٦٢] .

وقد استهلت هيئة المشبه به بالغيث مع أن المقصود بالتمثيل هو النبات وذلك (تصويرا لِلْهَيْئَةِ مِنْ مَبَادِئِهَا لِإِظْهَارِ مَوَاقِعِ الْحُسْنِ فِيهَا لِأَنَّ ذَلِكَ يَكْتَسِبُ مِنْهُ الْمُشَبَّهُ حُسْنًا)[١٦٣] .

وآثر النظم لفظ (غيث) دون غيره من ألفاظ كماء ومطر ووابل وذلك لأن الغيث هو المَطَرُ الخَاص بالخَيْر ، الكَثِيرُ النَّافِعُ ؛ لأنه يُغَاثُ به النُّاس [١٦٤] وفى تنكيره ما يوحى بأنه غيثٌ عظيمُ النفع كثيرُ الخير جليلُ الفائدة ، وزيادة في بيان شدة الإعجاب بما أنبت آثر النظم لفظ "الكُفّار": فهم -كما ذكر

---

[١٦٢] تأملات في البيان النبوي د إبراهيم عوضين الطبعة الثالثة ١٩٨٣م مطبعة السعادة ٤٣

[١٦٣] التحرير والتنوير (٢٧/ ٤٠٤):

[١٦٤] تاج العروس من جواهر القاموس،محمد مرتضى الحسيني الزبيدي، دار الهداية، تحقيق: مجموعة من المحققين غيث

ابن عطية – (إما كُفَّارٌ من الكفر بالله والعياذ بالله ، وذلك لأنهم أشد تعظيما للدنيا وأشد إعجابا بمحاسنها ، وإما كُفَّارٌ من كَفَرَ الحبَ أي ستره في الأرض فهم الزرّاع ، وخصهم بالذكر لأنهم أهل البصر بالنبات والفلاحة فلا يعجبهم إلا المعجب حقيقة الذي لا عيب له) [١٦٥] .

ثم يصورُ النظمُ الكريمُ حركة الزرع وحفيفه تصويرا بديعا ب(يَهيجُ) [١٦٦] (فالزرع إذا غلظ يكون لحركته صوت فكأنه هائج ، وهو ملائم ملائمة دقيقة لحال المشبه وهو اللعب والتفاخر والتكاثر وما في ذلك من الهيجان والجلبة) [١٦٧] .

وحقيقة الهياج :(ثورة الإنسان أو الحيوان ، ويستعار الهياج لشدة الشيء من غير الحيوان يقال : هاجت ريح ، ومنه هياج الزرع في الآية لأن الزرع تطول سوقه وسنابله فيتم جفافه فإذا تحرك بمرور الريح عليه صار له حفيف وخشخشة) [١٦٨] .

قوله :(فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا) أي متغيراً عما كان عليه من النضرة آخذاً في الذُّبُول والاضْمِحْلاَل ، وَعَطفَ فَتَراهُ مُصْفَرًّا بالْفاءِ الدالة على الترتيب والتعقيب ؛ للإشارة إلى قصر المسافة بين نضرة الزرع واستوائه ، وبين اصفراره ونهايته ، كما آثر النظم (مُصْفَرًّا) (لأن الاصفرار مقابل للنضرة فهو مقصود لِلَفْت الانتباه للمقارنة بين الحالين ،كما لم يقل

---

[١٦٥] المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي دار الكتب العلمية - لبنان - ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م الطبعة : الأولى تحقيق : عبد السلام عبد الشافي محمد ٥/ ٢٦٧

[١٦٦] هاجَتِ الأرضُ تَهيجُ هِياجاً وهاجَ الشيءُ يَهِيج هَيْجاً وهِياجاً وهَيَجاناً واهْتاجَ وتَهَيَّجَ ثار لمشقة أو ضرر والهَيْجُ والهياجُ والهَيْجا والهَيْجاءُ الحرب بالمد والقصر لأنها مَوْطِنُ غَضَبٍ وأرض هائجة يَبِسَ بَقْلُها أو اصفرَّ لسان العرب : هيج

[١٦٧] الإعجاز البلاغي د محمد محمد أبو موسى مكتبة وهبة الطبعة الأولى ١٩٨٤م ١٠٨

[١٦٨] التحرير والتنوير ٢٣/ ٣٧٨

فيصفر (إيذانا بأن اصفراره مقارن لجفافه وإنما المترتب عليه رؤيته) [١٦٩] .

حقاً إنها رؤية عبرة وعظة مدعو إليها كل من تتأتى منه الرؤية ، ولعل ذلك وراء الالتفات من الغيبة في قوله (أَعْجَبَ الْكُفَّارَ) إلى الخطاب في قوله :(فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا)كما أن هذا الالتفات يحمل تعريضا بغفلتهم وانشغالهم عن النظر والتأمل في اصْفِرَارَ النَّبَاتِ الذي هو أَعْظَمُ دَلَالَةٍ عَلَى التَّهَيُّؤِ لِلزَّوَالِ ، ويسدل الستار على المشهد الأخير لهذا النبات مشهد التلف، والزوال مشهد الفتات والحطام (ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا) و(هكذا الحياة الدنيا تكون أولا شابة، ثم تكتهل، ثم تكون عجوزًا شوهاء، والإنسان كذلك في أول عمره وعنفوان شبابه غضا طريًّا لين الأعطاف، بهي المنظر، ثم إنه يشرع في الكهولة فتتغير طباعه وَيَنْقد بعض قواه، ثم يكبر فيصير شيخًا كبيرًا، ضعيف القوى، قليل الحركة، يعجزه الشيء اليسير)[١٧٠] .

وتختم الآية بالإشارة إلى فخامة شأن الآخرة وعظم ما فيها من اللذات والآلام ترغيبا في تحصيل نعيمها المقيم وتحذيرا من عذابها الأليم فقال :(وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ) وقد ذكر العذاب (لأنه من نتائج الانهماك فيما فصل من أحوال الحياة الدنيا) [١٧١] .

كما قدم على المغفرة لكونه سابقاً عليها و (لأن الآية جاءت تواجه الذين خدعوا بالحياة الدنيا وأذهبوا طيباتهم فيها ؛ ولذلك جاءت فاصلة الآية

---

[١٦٩] تفسير أبي السعود : ٨/ ٢١٠

[١٧٠] تفسير ابن كثير : ٤/ ٣١٤

[١٧١] تفسير أبي السعود : ٨/ ٢١٠

مؤكدة لما بدئت به (وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُور) [١٧٢] وقد ورد العذاب منكرا موصوفا بالشدة لتهويل أمرة وتعظيم شأنه ، وفي ترك وصف العذاب بكونه من الله- تعالى - مع وصف ما بعده بذلك (وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ) إشارة إلى سعة رحمته ، وأنه تعالى منزه عن نسبة السوء إليه هذا ولم يُبَيِّنْ النظم أَصْحَابَ الْعَذَابِ وَأَصْحَابَ الْمَغْفِرَةِ وَالرِّضْوَانِ لِظُهُور ذَلِكَ كما جاء الرضوان منكرا للتعظيم ولتذهب فيه النفس كل مذهب ،ثم تختم الآية الكريمة ختاما موجزا تؤكد به ما بدأت به من التحذير من أمر الدنيا فتقصر الحياة على متاع الغرور قصر موصوف على صفة قصراً (ادعائيا باعتبار غالب أحوال الدنيا بالنسبة إلى غالب طالبيها)[١٧٣]

قال سعيد بن جبير الدنيا متاع الغرور إذا ألهتك عن طلب الآخرة فأما إذا دعتك إلى طلب رضوان الله وطلب الآخرة فنعم الوسيلة [١٧٤] .

الموطن الرابع :

(وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا (٣٢) كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلاَلَهُمَا نَهَرًا (٣٣) وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا (٣٤)وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا (٣٥) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا (٣٦) قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً (٣٧) لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلاَ

---

١٧٢ دلا لات التقديم والتأخير في القران الكريم دراسة تحليلية د منير محمود المسيرى مكتبة وهبة الطبعة الأولى ٢٠٠٥م ٦٣٩

١٧٣ التحرير والتنوير ٢٧/ ٤٠٧

١٧٤ تفسير أبي السعود : ٨/ ٢١١

أَشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا (٣٨) وَلَوْلاَ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللهُ لاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالاً وَوَلَدًا (٣٩) فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا (٤٠) أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا (٤١)[١٧٥] .

ويَأتِي الحديثُ عن الأموالِ والأولادِ في سورةِ الكهف في ثنايا المحاورةِ التي حكاها القرانُ الكريمُ وجرتْ بين كافرٍ لنِعَمِ الله عليه فخورٍ بكثرة ماله، وعزةِ أنصاره ، منكرٍ للبعث ، مستهزئٍ به ،وبين صاحبه المؤمن، الفقيرِ المعدومِ المُعْتَزِ بعقيدتِه وإيمانِه ، وكان ذلك مَثَلاً طُلِبَ من رسولِ الله- صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم - أن يَضْرِبَه للمشركين وأمثالِهم المستكبرين عن مجالسة الضعفاء والمساكين من المسلمين .

قوله :(وَاضْرِبْ)

الضَرْبُ كما ذكر الراغبُ الأصفهاني إيقاعُ شيءٍ على شيءٍ ، وضَرْبُ الأرض بالمطر وضَرْبُ الدراهم اعتباراً بضَرْبِ المطرقة وقيل له الطبع اعتبارا بتأثير السكة فيه ، وضَرْبُ المثل هو من ضَرْبِ الدراهم وهو ذكر شيء أثره يظهر في غيره)[١٧٦] .

ومعنى :(وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً) أي اذْكُرْ و بيِّن ، فضَرْب المثل هنا : ذِكرهُ وبيانُه وهو مستعار للقول والذكر تشبيهاً بوضع الشيء بشدّة ، وكما هو معلوم فضَرْبُ المثل يشْحِذُ ذِهْنَ المخاطب، ويحركُ طاقاته الفكرية، و يوجه عنايَته للتأمّل والتدبر ليصل إلى إدراك المراد حيث يقرب الصورة إلى ذهن المخاطب ويرفع من أقدارها وذلك عن طريق دقة التصوير مع إبراز العناصر المهمّة من الصُّورة التمثيليّة لاسيما إذا كانَتْ صورةً حيَّة

---

[١٧٥] الكهف : ٣٩ - ٤١

[١٧٦] المفردات في غريب القرآن : ضرب: ٢٩٥

ناطقة متحرِّكة ، تبرز المشاعر النَّفسيّة والوجدانيّة و تكشف عن جوانب الشخصية في حوار متصاعد يضفى على القصة بهاء ورونقا وعذوبة وإشراقا وسحرا ، وقد حفل هذا المثل بأفانين متعددة من فنون البلاغة نذكر منها إسناد الأفعال :(فَجَّرْنَا ، حَفَفْنَا ،جَعَلْنَا) لضمير العظمة للتنويه بكمال العناية والإكرام والامتنان ، والاستعارة في قوله: (وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا) أي و لَمْ تَنْقُصْ مِنْ أُكُلِهَا شَيْئًا عَنْ مِقْدَار مَا تُعْطِيهِ الأَشْجَارُ فِي حَالِ الْخِصْبِ فاسْتعير الظُّلْمُ لِلنَّقْص والمنع عَلَى سبيل الاستعارة التَّمْثِيلِيَّةِ حيث شبهت هَيْئَةِ صَاحِبِ الْجَنَّتَيْنِ فِي إِتْقَانِ خَبَرِهِمَا وَتَرَقُّبِ إِثْمَارِهِمَا بِهَيْئَةِ مَنْ صَارَ لَهُ حَقٌّ فِي وَقْرَةٍ غَلَّتِهَا بِحَيْثُ إِذَا لَمْ تَأْتِ الْجَنَّتَانِ بِمَا هُوَ مُتَرَقَّبٌ مِنْهُمَا أَشْبَهَتَا مَنْ حَرَمَ ذَا حَقٍّ حَقَّهُ فَظَلَمَهُ، فَاسْتُعِيرَ الظُّلْمُ لِإِقْلَالِ الْإِغْلَالِ، وَاسْتُعِيرَ نَقْيُهُ لِلْوَفَاءِ بِحَقِّ الْإِثْمَارِ)[١٧٧] ولما كانت الثمار غالبا تكثر في عام وتقل في عام وكذا بعض الأشجار تأتي بالثمار في بعض الأعوام دون بعض جاء قوله :(وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا) احتراسا مِن تَوَهُّم النقصان و إثباتا لكمال العطاء ،كما آثر النظم الكريم مادة التفجير فى قوله : (وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا) للإشعار بالقوة والشدة في شق النهر يقول الراغب : (الفجر شق الشيء شقا واسعا) [١٧٨] .

كما جاء الاِسْتِفْهَامُ فِي قَوْلِهِ: (أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ) على غير حقيقته فهو استفهام مجازى أريد به التعجيب والإنكار وهو أكثر تأثيرا وأوقع في نفس المتلقي إذ هو دعوة للنظر والتأمل والفكر.

---

[١٧٧] ينظر التحرير والتنوير ١٥/ ٣١٨

[١٧٨] المفردات في غريب القرآن فجر ٣٧٣

(وَقُدِمَ الظرفُ : (إذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ) على المحضض عليه: (قُلْتَ مَا شَاءَ اللهُ لاَ قُوَّةَ إلاَّ باللهِ) للإيذان بتحتم القول في آن الدخول من غير ريث لا للقصر) [١٧٩] .

وفي الآية الكريمة إيجاز بالحذف دل عليه سياق الكلام والتقدير : وَلَوْلاَ إذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ فأعجبك ما رأيت ، قلت ما شاء الله كان ،كما أتى بضمير الفصل (أنا) تأكيداً لحديث المتكلم عن نفسه ، كما تضمن هذا المثل لفا ونشرا غير مرتّب [١٨٠] .

حيث صَدَرَتْ من هذا الكافر المغرور ثلاث مقالات شنيعة الأولى : قوله : (أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا) والثانية قوله :(مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا) والثالثة قوله :(وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً)ثم جاء الرد من صاحبه على هذه المقالات دون ترتيب فبدأ بالآخرة لأنها الأهم قائلا(أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً) ردا على قوله :(وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً) وثنى بالثانية ناصحا لأنها تأتي في المرتبة بعدها فقال: وَلَوْلاَ إذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللهُ لاَ قُوَّةَ إلاَّ باللهِ إنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالاً وَوَلَدًا) ردا على قوله : (مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا) وثلث بالأولى مقرعا و راجيا: (فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا) ردا على:قوله :(أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا) ،وسرعان ما انتقل الرجاء إلى التنفيذ ، وكأن الله ـ تعالى ـ استجاب

---

[١٧٩] تفسير أبي السعود : ٥/ ٢٢٣

[١٨٠] اللَّفّ والنشر وهو ذكر متعدد على جهة التفصيل أو الإجمال ثم ذكر ما لكل واحد من غير تعيين ثقة بأن السامع يرده إليه فالأول ضربان :لأن النشر إما على ترتيب اللف كقوله تعالى:{وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ} [القصص: ٧٣] وإما على غير ترتيبه كقول "ابن حيُّوس":كَيْفَ أَسْلُو وأَنْتِ حِقْفٌ وَغُصْنٌ وغَزَالٌ لَحْظاً وَقَدًّا وَرَدْفاً ، والثاني كقوله تعالى {وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى } [البقرة: ١١١] فإن الضمير في (قالوا) لأهل الكتاب من اليهود والنصارى) ينظر الإيضاح في علوم البلاغة ٣٦٦ ، ٣٦٧ .

للرجل المؤمن ولم يكذب توقعه فأُحِيط بثَمَرِهِ ، والإحاطة كناية عن عموم الهلاك وأصله ـ كما قال الزمخشري ـ :(من أحاط به العدوّ ، لأنه إذا أحاط به فقد ملكه واستولى عليه ، ثم استعمل في كل إهلاك)[١٨١] أو أن تكون الإحاطة هنا مجاز عن الهلاك حيث شبه إهلاك جنتيه بما فيهما بإهلاك قوم أحاط بهم عدوهم ، وأوقع بهم الهلاك بحيث لم ينج أحد منهم ،ثم استعير التركيب الدالُّ على حال المشبَّه به للمشبَّه استعارة التمثيلية ، و هذا المجاز قد جسد الهلاك الذي حل بجنتي هذا المغرور المعاند وكأنه في حرب لا تبقى ولا تذر ، وقد آثر النظم(أحِيط)للإشارة إلى أن الهلاك أحاط بالثمر من كل جانب فلم يسلم منه شيء ،(كما خص الثمر بالذكر دون الزرع أو النخل لأن الإحاطة قد تكون بالشيء ، ثم يثمر بعد ذلك ، لكن الإحاطة هنا جاءت على الثمر ذاته ، وهو قريب الجنْي قريب التناول ، وبذلك تكون الفاجعة فيه أشدَّ [١٨٢] .

وبني الفعل (أحِيط) للمفعول لأن الفكر حاصل بإحاطة الهلاك من غير نظر إلى فاعل مخصوص ، وللدلالة على سهولته) [١٨٣] ثم يصور النظم الكريم فجيعة الرجل الجاحد في جنتيه تصويرا واقعيا و بديعا فقد أفقدته الصدمة وعيه و إدراكه وأعجزته عن النطق للحظات ،فإذا به يعرب عما اعتراه من غم وهم وحسرة وندامة بتقليب يديه و ضرب إحداهما على الأخرى ثم بعد أن أفاق من صدمته أعلن عن تَنَدُّمِهِ الدائم والمستمر عَلَى مَا فَرَطَ مِنْهُ وقت لا ينفع الندم ولم تكن له عشيرة تنصره من دون الله ، وما كان منتصراً بقوّته ، ثم ينتقل بنا النظم الكريم إلى تصوير الدنيا في

---

[١٨١] تفسير الكشاف : ٢/ ٦٧٦

[١٨٢] تفسير الشعراوي : ١٤ / ٨٩١٩

[١٨٣] نظم الدرر : ٦٤/١٢

قِصَرها وسرعة زوالها بالماء الذي نزل من السماء ، فارتوتْ بـه الأرض ، وأنبتتْ ألواناً من الزروع والثمار ، ولكن سرعان ما يذبلُ هذا النبات ويصير هشيماً تذروه الريح وكأن شيئا لم يكن فقال - تعالى- : (وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا) (١٨٤).

ففي هذا التمثيل طوي الحق -سبحانه وتعالى- الحياة كلها بنعيمها وزخارفها حتى لا يتباها بها أحد ولا يغتر بها إنسان فمتاعها قليل ، وفناؤها سريع ، (قالت الحكماء : إنما شبه تعالى الدنيا بالماء لأن الماء لا يستقر في موضع ، كذلك الدنيا لا تبقى على واحد ، ولأن الماء لا يستقيم على حالة واحدة كذلك الدنيا ، ولأن الماء لا يبقى ويذهب كذلك الدنيا تفنى)(١٨٥).

وبعد أن ضرب المثل للحياة الدنيا التي غرت أبناءها فأوردتهم موارد الهلاك أعقب ذلك بذكر أبرز ما في الحياة من زينة وتفاخر ، ومادة للتباهي فقال : (الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً (٤٦) (١٨٦) فقد جُمِعَ المالُ والبنون في حكم واحد، وهو زينة الحياة الدنيا. فلا ينبغي لعاقل أو متأمل الاغترار بها والتفاخر بمظاهرها، وكدأبه في الحديث عن المال والبنين (قدم النظم الكريم المالَ على البنين مع كونهم أعز منه عند أكثر الناس لعراقته فيما نيط به من الزينة والإمداد وغير ذلك (١٨٧) .

---

١٨٤ الكهف ٤٥
١٨٥ تفسير القرطبي ١٠ / ٤١٢
١٨٦ الكهف ٤٦
١٨٧ روح المعاني ١٥/ ٢٨٦

الموطن الخامس :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٤) إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٥) [١٨٨] .

أما الحديث عن المال والأولاد في سورة التغابن فقد ورد في مقام تحذير المؤمنين من الاغترار بالأزواج والأولاد، فإن بعضهم عدو يثبط عن الطاعة ويلهى عن ذكر الله ، قوله : (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ)

نَزَلَتْ فِي عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ الأَشْجَعِيِّ: كَانَ ذَا أَهْلٍ وَوَلَدٍ، وَكَانَ إِذَا أَرَادَ الْغَزْوَ بَكَوْا إِلَيْهِ وَرَقَّقُوهُ، وَقَالُوا: إِلَى مَنْ تَدَعُنَا؟ فَيَرِقُّ لَهُمْ وَيُقِيمُ فَأَنْزَلَ اللَّهُ: "إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ"وروى عن ابن عباس أن رجلا سأله عن هذه الآية فقَالَ هَؤُلاَءِ رِجَالٌ أَسْلَمُوا مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ وَأَرَادُوا أَنْ يَأْتُوا النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَأَبَى أَزْوَاجُهُمْ وَأَوْلاَدُهُمْ أَنْ يَدَعُوهُمْ أَنْ يَأْتُوا رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَلَمَّا أَتَوْا رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - رَأَوْا النَّاسَ قَدْ فَقُهُوا فِي الدِّينِ هَمُّوا أَنْ يُعَاقِبُوهُمْ فَأَنْزَلَ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُم وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)[١٨٩] .

وصُدّرت الآيةُ الكريمةُ بالنداء (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا) لتهيئة نفوس المتلقين ولفت انتباهِهم وإيقاظِ مشاعرهم وأحاسيسِهم، وتشويقهم لقبول ما يرد من نصح وإرشاد ، ثم جاء التحذير من عداوة بعض الأزواج والأولاد :(إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ) مفتتحاً بحرف

---

[١٨٨] التغابن : ١٤ - ١٥

[١٨٩] تفسير القرطبي : ١٨/ ١٤١

التأكيد (إنَّ) للاهتمام بمضمون الخبر ،ورفع احتمال المبالغة فيه لغرابته ،كما قُدِّمَ الخبرُ (عَدُوًّا) لذات الغرض .

ولعدم تعميم حكم العداوة أدخلت (مِنْ) التَّبْعِيضِيَّة للإشارة أنّ كلَّهم ليسوا بأعداء ، وسماهم عدواً اعتبارا بما يتولد منهم وينشأ عنهم ،أو أن الكلام محمول على التَّشْبِيهِ الْبَلِيغ ، أيْ هم كَالْعَدُوِّ يجب الحذر منه ،و(قُدم الأزواج لأنها مصادر الأولاد ولأنها لكونها محل الشهوات ألصق بقلوب الناس وأشد اشغالا لهم عن العبودية) [١٩٠] .

ولما كان الأزواج أقرب عداوة من الأولاد قدمهن ، فقال مؤكِّداً لمن يستبعد ذلك : (إن من أزواجكم) [١٩١] .

وهذا الحكم يشمل النساء كما شمل الرجال (فكما أن الرجل تكون زوجته وولده عدواً له كذلك المرأة يكون زوجها وولدها عدواً لها إلا أن النظم اقتصر على خطاب الرجال تغليبا)[١٩٢] .

(فَاحْذَرُوهُمْ) أي أحفظوا أنفسكم من محبتهم وشِدة التعلق والاحتجاب بهم ولا تؤثروا حقوقهم على حقوق الله تعالى)[١٩٣] .

---

[١٩٠] تفسير حقي : ١٥/ ٣٦٩

[١٩١] نظم الدرر ٢٠/ ١٢٩

[١٩٢] التغليب وهو صورة من صور الخروج على مقتضى الظاهر ويعرف لدى البلاغيين بأنه إعطاء أحد المتصاحِبَيْن في اللفظ، أو المتشاكِلَيْن المتشابهَيْن فِي بَعْض الصفات، أو المتجاورين أو نحو ذلك حُكْمَ الآخَر. ويكون التغليب في أمور كثيرة، منها: تغليب المذكر على المؤنث في الخطاب عند اجتماعهما ، وتغليب الكثير على القليل، وتغليب المعنى على اللفظ، وتغليب المخاطب على الغائب، وتغليب أحد المتناسبين أو المتشابَهيْن أو المتجاوريْن على الآخر، وتغليب العقلاء على غيرهم، البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني دار القلم دمشق الدار الشامية بيروت ط أولى ١٩٩٦م ، ١/ ٥١٠

[١٩٣] تفسير روح البيان : ١٠/ ٩

(وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) دعوة إلى العفو والصفح والمغفرة جاءت في سياق الشرط ترغيبا في الامتثال وسرعة الاستجابة ، لتعلق حصول الجواب بحصول الشرط وتلازمهما ، وحذف متعلق الأفعال الثلاثة (تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا) إما لظهوره ومعرفته وإما لقصد التعميم والشمول .

وجملة (فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) دليل جواب الشرط المحذوف و التقدير وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا أجرتم بمثل صنيعكم ، لأن الله غفور رحيم ، وقد أكدت الجملة ب " إنَّ " الدالة على التأكيد ، وبالجملة الاسمية ، وبالصفة المشبهة الدالة على الدوام والاستمرار، ثم جاء الإِخْبَار عَنْ كَوْنِ الأَمْوَالِ وَالأَوْلاَدِ فِتْنَةً بطريق الْقَصْرِ الادعائي لِقَصْدِ الْمُبَالِغَةِ فِي إِثْبَاتِ أَنَّهُمْ فِتْنَةٌ فقال: (إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلاَدُكُمْ فِتْنَةٌ) .

(وقد أَدْمِجَ فِي هذا الحكم الأَمْوَالَ لأَنَّهَا لَمْ يَشْمَلْهَا طَلَبُ الْحَذَرِ وَلاَ وَصْفُ الْعَدَاوَةِ)[١٩٤] (وترك ذكر الأزواج في الفتنة ،لأن منهن من يكون صلاحاً وعوناً على الآخرة) [١٩٥] كما قُدِّمَ ذِكْرُ الأَمْوَالِ عَلَى الأَوْلاَدِ لأَنّ فتنة المال أكثر ، و لأَنّ الأَمْوَالَ لَمْ يَتَقَدَّمْ ذِكْرُهَا بِخِلاَفِ الأَوْلاَدِ ، (وَوَجْهُ إِدْمَاجِ الأَمْوَالِ هُنَا أَنَّ الْمُسْلِمِينَ كَانُوا قَدْ أُصِيبُوا فِي أَمْوَالِهِمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَغَلَبُوهُمْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَلَمْ تُذْكَرِ الأَمْوَالُ فِي الآيَةِ السَّابِقَةِ لأَنَّ الْغَرَضَ هُوَ التَّحْذِيرُ مِنْ أَشَدِّ الأَشْيَاءِ اتِّصَالاً بِهِمْ وَهِيَ أَزْوَاجُهُمْ وَأَوْلاَدُهُمْ)[١٩٦] .

---

[١٩٤] التحرير والتنوير ٢٨/ ٢٨٥

[١٩٥] نظم الدرر :٢٠ /١٣٢

[١٩٦] التحرير والتنوير ٢٨/ ٢٨٥

وتختم الآية بتزهيد في الدنيا وترغيب في الآخرة وثوابها(واللهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ) يعني الجنة ، فهي الغاية ، ولا أجر أعظم منها .

الموطن السادس :

(قالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَارًا (٥) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلاَّ فِرَارًا (٦) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا (٧) ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا (٨) ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا (٩) فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَارًا (١١) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا (١٢) مَا لَكُمْ لاَ تَرْجُونَ للهِ وَقَارًا (١٣) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا (١٤) أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا (١٥) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ **الشَّمْسَ** سِرَاجًا (١٦) وَاللهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الأَرْضِ نَبَاتًا (١٧) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا (١٨) وَاللهُ جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ بِسَاطًا (١٩) لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجًا (٢٠) قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلاَّ خَسَارًا (٢١) وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا (٢٢) [١٩٧].

أما الحديثُ عن المالِ والبنينَ في سورة نوح فقد جاء في ثنايا مناجاة نوحٍ عليه السلامُ ، لربه وشكواه إليه ، حيثُ امتثلَ لأمرِ اللهِ - تعالى - فدعا قومَه من غير فتورٍ إلى التوحيدِ،وأرشدَهم إلى التفكير في الكون العظيم ، متخذاً في دعوته مسالكَ متعددةً :فدعاهم بالليل والنهار ، وفى السر والعلن مبينا لهم أن الاستغفار سببٌ في سعة الرزق و الإمدادِ بالأموال والأولاد ، والفوز بالجنات والأنهار ، ولكنه العناد والاستكبار والتمرد والعصيان .

---

[١٩٧] نوح : ٥ - ٢٢

وقد اشتملت السورة الكريمة على ضروبٍ بلاغيةٍ كثيرةٍ فقد بُدِئَتْ بتأكيدِ خبر الإرسال اهتماما به (إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) ثم جاء بيانُ الإنذار (قَالَ يا قَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ) ، فلم يعطف على سابقه لما بينهما من كمال الاتصال ،وقد استهل نوح دعوة قومه بالنداء للفت انتباههم إليه و إقبالهم عليه ، متوددا إليهم بـ (قوم) المضاف إلى ضميره لتذكيرهم بالأواصر التي تجمعهم زيادة في طمأنتهم ،ثم افتتاحُ كلامه بحرف التأكيد لإزالة الشك من نفوسهم ، ثم شرع في بيان الإنذار (أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاء لا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ)

ثم ذكر - عليه السلامُ- الطرقَ والمسالكَ التي اتبعها مع قومه (قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَارًا) مشيرا بالطباق بين الليل والنهار إلى مداومته في الدعوة دون كلل أو ملل لانحسار الزمان فيهما ،كاشفا بالقصر عن مدى جحودهم ، (فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلاَّ فِرَارًا) مستعيرا الفرار لقوة إعْراضهم ، مسندا زيادة الفرار إلى الدعاء على سبيل المجاز العقلي لعلاقة السببية ، ثم يذكر عليه السلام حالة أخرى من جفاء طباعهم وغلظة قلوبهم (وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا) فجسد بالمجاز المرسل في (جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ) مقدار رفضهم وكأنهم لشدة حرصهم على عدم الاستماع جَعَلُوا الأَصَابِعَ كُلَّها فِي آذَانِهِمْ ، وَاسْتَغْشَوْا ثِيابَهُمْ وتغطوا بها ، وهذه الهيئة (إما أن تكون حقيقة ،وإما أن تكون كناية عن المبالغةِ في

إعراضهم عن ما دعاهم إليه ، فهم بمنزلة من سد سمعه ومنع بصره) [١٩٨] .

ويواصل نوحٌ دعوة قومه بشتى الأساليب مراعيا أحوالهم في ذلك ، فهو تارة يدعوهم جهرا ، وتارة يدعوهم سرا ، وتارة يجمع بين الأمرين (ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهاراً ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا) فافتتح بالمناصحة في السر ، فلما لم يقبلوا ثنى بالمجاهرة ، فلما لم تؤثر ثَلَّثَ بالجمع بين الإسرار والإعلان) [١٩٩] .

ثم فصَّل دعوته بترغيبهم في مغفرة الذنوب، وما يترتب عليها من رزق وفير ، وإمداد بالأموال والبنين، والفوز بالجنات والأنهار :(فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا) وقد آثرَ النظمُ الكريمُ الوصفَ (غَفَّارًا) لمناسبة (اسْتَغْفِرُوا) تأكيدا لحصول المغفرة،والمجاز المرسل (يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَارًا) لعلاقة المحلية فقد أراد بالسماء المطر مبالغة في الإرسال ،كما استعير الإرسال للإيصال والإعطاء ، وعُدى ب (علي) في إشارة إلى أنه إرسال من علوّ متمكنا منهم مشتملا عليهم ،كما أعيد (يَجْعل) بعد واو العطف في قوله : (ويجعل لكم أنهاراً) للتوكيد اهتماماً بشأن المعطوف ، كما آثر تنكيرَ (أمْوَال ، بَنِينَ ،جَنَّات ،أنْهَار) للتكثير والتعظيم ،ثم انتقل إلى توبيخهم بالاستفهام المجازى (مَا لَكُمْ لاَ تَرْجُونَ للّهِ وَقَارًا) منكرا عليهم استهتارهم وعدم توقيرهم لربهم ، ذاكرا لهم بعضاً من مظاهر قدرته : فابتدأ بخلقهم أطْوَارًا لإقرارهم بالمعاد :فالذي أنشأهم من العدم قادر على أن يعيدهم بعد موتهم ، ثم قرَّرَهم

---

[١٩٨] تفسير البحر المحيط ٨/ ٣٣٢ بتصرف

[١٩٩] الكشاف : ٤/ ٦١٩

بخلق السماوات والشمس والقمر :(أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا وَجَعَلَ القمر فِيهِنَّ نُوراً) فأخْبر عَن الْقَمَر بأَنَّهُ نُورٌ مُبَالَغَةً فِي وَصْفِهِ بالإِنَارَةِ (وَجَعَلَه فيهن مع أنه في إحداهن وهي السماء الدنيا كما يقال زيد في بغداد وهو في بقعة منها والمرجح له الإيجاز والملابسة بالكلية والجزئية ، وكونها طباقاً شفافة)[٢٠٠] .

وقوله :(وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا) تشبيهٌ بليغٌ قرَّبَ صورةَ المشبَّه إلى ذِهْن المتلقّي ، وآثر النظم إعادة (جَعَلَ) بعد واو العطف للتنبيه على استقلال كل نعمة بنفسها إظهاراً لعظيم القدرة وزيادةً في التوبيخ ،ثم يلفت انتباههم إلى قدرة الله - تعالى- في أصل نشأتهم وقدرته على إعادتهم (وَاللهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الأَرْضِ نَبَاتًا ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا وَاللهُ جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ بِسَاطًا لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجًا) قوله :(وَاللهُ أَنْبَتَكُمْ) أي أنشأكم لما كان خلق أصل الإنسان من الأرض شبيهاً بخروج النبات منها استعير الإنبات للإنشاء، استعارةً تصريحية تبعية (وهذه الاستعارة أدلّ على الحدوث ، لأنهم إذا كانوا نباتاً كانوا محدَثين لا محالة حدوث النبات)[٢٠١] (ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا) بالبعث والحشر، وأكده بالمصدر (إِخْرَاجًا) كما أكّد (أَنْبَتَكُمْ) ب (نَبَاتًا) للدلالة على أن الإعادة محققة كالبدء، وأنها تكون لا محالة ،(وَاللهُ جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ بِسَاطًا لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجًا) قوله :(بِسَاطاً) تشبيه بليغ . أي : جعلها لكم كالبساط ، وَخُصَّتْ بالذِّكْر لأَنَّهَا أَهَمُّ لاِشْتِرَاكِ كُلِّ النَّاسِ فِي الاِسْتِفَادَةِ مِنْهَا) [٢٠٢] .

---

[٢٠٠] روح المعاني : ٢٩/ ٧٥

[٢٠١] الكشاف : ٤/ ٦٢١

[٢٠٢] التحرير والتنوير : ٢٩/ ٢٠٥

كما كرر لفظ الجلالة في قوله (وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ بِسَاطًا) بعد قوله (وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الأَرْضِ نَبَاتًا) للتعظيم والتيمن والتبرك ، و بعد نصح طال وامتد قرابة ألف سنة إلا خمسين عاما تضرع نوح شاكيا عصيان قومه له ، وإتباعهم الْقَادَةَ وَالرُّؤَسَاءَ من ذوى الْمَالِ وَالْوَلَدِ :(قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلاَّ خَسَارًا وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا) والجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً ، لأن ما سبقها يثير سؤالا عن حال قومه وما آل إليه أمرهم ، وأثر النظم التعبير بالموصول عن قادتهم وزعمائهم (مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلاَّ خَسَارًا) لما تؤذن به جملة الصلة من بطرهم وطغيانهم بنعمة الله ،وتأكيداً للخسارة قُصِرَتْ الزيادةُ عليها قصرَ موصوفٍ على صفة ،كما(أجرى ذلك مجرى صفة لازمة لهم وسمة يعرفون بها ، تحقيقا له وتثبيتا ، وإبطالا لما سواه)[٢٠٣] (وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا)(وأكد الفعل بالمصدر دلالة على قوة مكرهم ، وزاده تأكيداً بوصفه ب(كُبَّاراً) أي بالغ النهاية في العِظم ذلك لأنهم فوق كفرهم َصَدُّوا النَّاسَ عَنِ الدِّينِ بِحِيَلٍ وَأَسَالِيبَ شَتَّى فقطع الله دابرهم و أَغْرَقَهُمُ بالطُّوفَانِ .

تم بحمد الله تعالى والحمد لله أولاً وآخراً

***

---

[٢٠٣] تفسير الكشاف ٤/ ٦١٩

الخاتمـــة

بعد هذه الرحلة الممتعة في رحاب القرآن الكريم وآياته آن لنا أن نوجز أهم النتائج ، ولعل أهم النتائج التي تمخضت عنها هذه الدراسة المتواضعة : التأكيد على إعجاز القرآن الكريم ، وأن جانبا من إعجازه يكمن في لغته وبلاغته ، وأن بلاغته تكمن في نظمه وإتلاف كلماته : إذ كل كلمة تقع مع جارتها الموقع المناسب والمكمل لتمام المعنى وتبيان الغرض، وقد تجلى ذلك جيداً في ثنايا البحث ومن خلال الموازنات المتعددة بين الآيات الكثيرة التي جاءت متفقة في كثير من كلماتها .

أن بلاغة القرآن الكريم ميدانٌ فسيحٌ للبحث والدراسة تنتظر جهود الباحثين لإبراز ما تحتويه أساليب القرآن من روائع البلاغة وأسرار الإعجاز .

أننا في حاجة إلى المزيد من تلك الدراسات والأبحاث التي تكشف لنا الحين بعد الحين سراً جديداً من أسرار هذا الكتاب العظيم وتعرب لنا عن قوة بيانه وروعة إعجازه وسمو معانيه .

أهم المصادر والمراجع

القرآن الكريم

١ الإتقان في علوم القرآن جلال الدين السيوطي ، دار الفكر ،لبنان ، تحقيق : سعيد المندوب الطبعة: الأولى ١٩٩٦م .

٢ أسرار البلاغة عبد القاهر الجرجاني محمود محمد شاكر دار المدني بجدة .

٣ أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن محمد المختار الشنقيطى دار عالم الفوائد .

٤ الإعجاز البلاغي د محمد محمد أبو موسى مكتبة وهبة الطبعة الأولى ١٩٨٤م .

٥ الإيضاح في علوم البلاغة الخطيب القزوينى دار الكتب العلمية بيروت لبنان ٢٥٣ ،

٦ بحر العلوم أبو الليث نصر بن محمد بن إبراهيم السمرقندي دار الفكر بيروت محمود مطرجي

٧ البحر المحيط محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي تحقيق عادل أحمد عبد الموجود ، علي محمد معوض دار الكتب العلمية بيروت لبنان الطبعة الأولى ١٩٩٣م

٨ البحر المديد أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة ،دار الكتب العلمية،بيروت ،الطبعة الثانية / ٢٠٠٢م .

٩ البرهان في علوم القرآن، الزركشي دار المعرفة ، بيروت ، محمد أبو الفضل إبراهيم .

١٠ البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني دار القلم دمشق الدار الشامية بيروت ط أولى ١٩٩٦م .
١١ تاج العروس من جواهر القاموس،محمد مرتضى الحسيني الزبيدي، دار الهداية، تحقيق: مجموعة من المحققين
١٢ تأملات في البيان النبوي د إبراهيم عوضين الطبعة الثالثة ١٩٨٣م مطبعة السعادة .
١٣ التحبير شرح التحرير في أصول الفقه علاء الدين المرداوي الحنبلي تحقيق د. عبد الرحمن الجبرين، د. عوض القرني، د. أحمد السراح مكتبة الرشد ٢٠٠٠م .
١٤ التحرير والتنوير محمد الطاهر بن عاشور دار سحنون للنشر والتوزيع تونس ١٩٩٧م .
١٥ تفسير أبي السعود المسمى إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم لقاضى القضاة الإمام أبى السعود دار إحياء التراث العربي بيروت .
١٦ تفسير الخازن المسمى لباب التأويل في معاني التنزيل علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي الشهير بالخازن دار الفكر ، بيروت ، لبنان ، ١٩٧٩م تفسير الخازن .
١٧ تفسير الشعراوي أخبار اليوم دار الكتب والمكتبات .
١٨ تفسير الطبري جامع البيان عن تأويل القرآن محمد بن جرير الطبري أحمد محمد شاكر مكتبة ابن تيمية الثانية .
١٩ تفسير الفخر الرازي الشهير بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب محمد بن عمر المعروف بالفخر الرازي دار إحياء التراث العربي .

٢٠ تفسير القرآن العظيم إسماعيل بن عمر بن كثير ، دار النشر: دار الفكر - بيروت .
٢١ تفسير القرطبي الجامع لأحكام القرآن لأبى عبد الله محمد شمس الدين القرطبي ،أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش دار الكتب المصرية ، الثانية ، ١٩٦٤م
٢٢ تفسير المنار محمد رشيد رضا- الشيخ محمد عبده دار المنار الثانية ١٩٤٧م .
٢٣ التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج ، وهبة بن مصطفى الزحيلي دار الفكر المعاصر، دمشق ، الثانية : ٣/ ١٦٦ .
٢٤ التفسير الوسيط محمد سيد طنطاوي موقع التفاسير.
٢٥ تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان المعروف بتفسير السعدي عبد الرحمن بن ناصر السعدي عبد الرحمن بن معلا اللويحق مؤسسة الرسالة الأولى ٢٠٠٢م .
٢٦ جمهرة اللغة، ابن دريد دار العلم للملايين، بيروت ،١٩٨٧م ، الطبعة: الأولى، تحقيق: رمزي منير بعلبكي .
٢٧ حدائق الروح والريحان محمد الأمين الهررى دار طوق النجاة بيروت لبنان الأولى ٢٠٠١م
٢٨ الدر المصون في علوم الكتاب المكنون أحمد بن يوسف تحقيق أحمد محمد الخراط دار القلم دمشق .
٢٩ الدر المنثور في التفسير بالمأثور جلال الدين السيوطي تحقيق عبد الله بن محسن التركي مركز هجر للبحوث الطبعة الأولى ٢٠٠٣م .
٣٠ روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني محمود الألوسى دار إحياء التراث العربي ، بيروت

٣١ زهرة التفاسير محمد أبو زهرة دار النشر : دار الفكر العربي .
٣٢ صحيح البخاري الجامع الصحيح المختصر،محمد بن إسماعيل البخاري : دار ابن كثير ، اليمامة، بيروت ،١٩٨٧م، الطبعة: الثالثة، تحقيق : د. مصطفى ديب البغا .
٣٣ غرائب القرآن ورغائب الفرقان ، نظام الدين الحسن بن محمد النيسابوري تحقيق : الشيخ زكريا عميران دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ١٩٩٦م الأولى .
٣٤ في ظلال القرآن سيد قطب موقع التفاسير
٣٥ القاموس المحيط محمد بن يعقوب الفيروزابادي مؤسسة الرسالة بيروت المالُ .
٣٦ الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل العلامة جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري دار إحياء التراث العربي - بيروت، تحقيق: عبد الرزاق المهدي
٣٧ اللباب في علوم الكتاب أبو حفص عمر بن علي ابن عادل الدمشقي الحنبلي دار الكتب العلمية بيروت لبنان ١٩٩٨م الطبعة : الأولى عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض .
٣٨ لسان العرب محمد بن مكرم بن منظور دار صادر بيروت الطبعة الأولى .
٣٩ المال في القرآن محمود محمد غريب الطبعة الأولى ١٩٧٦م :
٤٠ المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي دار الكتب العلمية - لبنان - ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م الطبعة : الأولى تحقيق : عبد السلام عبد الشافي محمد .
٤١ مختصر المعاني سعد الدين التفتازاني ،دار الفكر الأولى ١٤١١هـ .

٤٢ المستدرك على الصحيحين للإمام الحافظ أبى عبدا لله الحاكم النيسابوري دار الحرمين للطباعة والنشر الطبعة الأولى ١٩٩٧م.
٤٣ المفردات في غريب القرآن الحسين بن محمد بن المفضل المعروف بالراغب الأصفهاني أبو القاسم دار المعرفة ، لبنان، محمد سيد كيلاني .
٤٤ نظم الدرر في تناسب الآيات والسور برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي دار الكتاب الإسلامي القاهرة ١٩٩٥م .